

رسائل
سقطت من
ساعي البريد
يوسف الدموكي
عصير الكتب
للنشر و التوزيع

رسائل سقطت
من ساعي البريد



الكتاب: رسائل سقطت من ساعي البريد

المؤلف: يوسف الدموكي

تنسيق داخلي: سندس فخري

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيداع: 28800/2019

I. S. B. N: 978-977-992-082-5

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

رسائل سقطت من
ساعي البريد

يوسف الدموكي




عصير
الكتب
للنشر و التوزيع

حين تكون الحقيبةُ المكتظة بالأوراق على كتف الرجل..

أثقلَ من وزنه..



هذه ليست قصة ساعي البريد؛

وإنما قصة الرسائل.

تنويه

ربما تجد رسالة تخصك جدا بينهم.

إهداء

إلى الذين ما زالوا يؤمنون بالورق.



حين وصل الساعي متأخرا..

(١)

جندي مجند م. س.

١ يونية ١٩٦٧

إلى أمي العزيزة، الحاجة زينب، سيدة نساء صعيد مصر، وزينة أهل قريتنا الموقرة، أما بعد..

أحدثك الآن من الجبهة، أكتب إليك هذه الورقة وأنا في حفرتي، ومعي سلاحي ومصحفي ورغيفان، وفي رقبتي الحجاب الذي ربطتِّه لي يوم ودعتك وأودعتني أمانة عند الله، أردتُّ أن أطمئنك عليّ، الأمور تسير على ما يرام، هناك بعض الأخبار التي لا يجوز لي كتابتها في هذا الجواب، لكن سأحكي لكِ كل شيء عندما تنتهي الحرب وأعود.

المهم يمّا، طمنيني على الحاج، على الأرض، على إخوتي، على البنات، اشتقت إليهن، قبّلي لي كل واحدة منهن في خدها مرتين، وقولي لهم إنني سآتي خلال أسبوعين، ومعي عسلية

وسمسمية وحمصية، السمسمية لفاطمة، والحمصية لبدر، والعسلية لندى، ولكِ عندي شال قطيفة من مصر، سأجلبه من الأزهر، وسأسلم لكِ على الحسين، سأنزل عند صديق لي في القاهرة قبل أن آتي إليكم، هذه المرة لن أدخل ويدي فارغة، وسأشتري لأبي ٣ أمتار قماش من الغورية، أعلم أن بدر هي التي تقرأ لك الجواب الآن، قبليها قبلة ثالثة لأنها مجتهدة وأثق بأنها أذكى بنات الكُتّاب.

يا أمي، لا أريد أن أقلقكِ عليَّ أبدا، ولا أن أشكو لك من مهمة اختارنا الله لها، ولا تَشُكي ولو للحظة أننا أضعف من هذه الظروف؛ فنحن رجال، لكن كل ما أطلبه منكِ هو الدعاء، أوصي الجيران بالدعاء، وصّي خالتي فاطمة، وصّي أبويا الحاج، نحتاج إلى بركاتكم بشدة هذه الأيام، حتى نعود بالسلامة.

تأتينا بعض الأخبار من القيادة أنّ هناك شيئا قريبا وأن نستعد، لذا كتبتُ إليك هذه الرسالة، لأرجوكِ فيها أن تكوني مطمئنة عليّ، وتطمئني أبي أن ولده البكر «قدها وقدود»، سيرفع رأسه، وسيفدي الأرض بكل ما يملك، وسيعود إلى جواره منتصرا، وقد قتل كل ولاد الكلب الصهاينة.



(٢)

أبوك الأسطى عطية الحاج،

١٣ فبراير ٢٠٠٢.

القاهرة؟ قاهرة يا ولدي، كل الجميلات قاهرات في العادة، إن حاولتَ البحث عن جمالها وأن تعدده، فتقول: جوها حلو، هادئة، ليس فيها زحام، وغيرها من صفات المدن «الجميلة»، فإنها ستبقى خارج الحسابات، لأن جمالها خفي، ككل اللواتي يأسرن الرجال، ويتعجب الناس: أهبل، ما الذي يعجبه فيها؟!

القاهرة هي هذا النوع يا ولدي، تشهد أرصفتها على جلوسي منتظرا رزقي، ومهنتي «أرزقي»، وشعار الوظيفة «على باب الله»، وراتبها «الأجر على الله»، وأيام الدوام كل أيام الأسبوع، وأيام العطلة كذلك قد تكون كل أيام الأسبوع، ثقيلة هي مهنتنا يا ولدي، حتى لأشعر أن الرصيف الذي أجلس عليه

منذ الصباح، ملتصق بمؤخرتي، أحمله معي من الشارع إلى سريري، وأقوم به من سريري إلى الشارع.

جميلة هي القاهرة في الحسين، في السيدة، في الأزهر، في العتبة، في رمسيس، في مقاهي وسط البلد، في الأماكن التي تشبهنا، لكنها مهما حدث لا تشبه الصعيد، مختلفة عن قرانا وبيوتنا، لكنها على الأقل تواسينا، لأنها تشبه شيئا ما بداخلنا، تشبه الجزء الطيب الذي لا تجده في البهوات يا ولدي، تشبه صمت جدك وثرثرة أمك؛ اللذين أتخيلهما ملخَّصَيْن في كوبٍ من الشاي الثقيل، هدوء الشاي وثقله ومرارته ومزاجه كصمت جدك، وصوت ملعقة القهوجي التي تضرب جدران الكوب من الداخل وهو يقلب بلا فائدة، رغم عدم وجود السكر، يشبه ثرثرة أمك، بلا فائدة أيضا لكنها ضرورية.

أبوووي على الصعيد يا ولدي، اشتقت إليه، إلى ذلك الوطن المر لكنه أحلى من أحلى قاهرة، اشتقتُ إلى صوت الديك بدلا من صوت المنبه، وإلى سمنة الصباح بدلا من زيت السيارات، وإلى قيلولة الظُّهرية بدلا من قضائها في حر جهنم، وإلى شاي العصاري بدلا من عوادم النقل العام، وإلى قعدة المغربية بدلا من النوم مهدودا، وإلى سمر المصطبة بدلا من انتظار اليوم التالي بملل وقلق وخوف.

اجتهد يا ولدي في مدرستك، في كُتابك، في كليتك، حتى تُعيَّن موظفا في الصعيد، وتكبر في الصعيد، وتعيش في الصعيد، وتموت في الصعيد، لا تفعل فعلة والدك، لا تكرر خطئي، ستفهمني أكثر عندما تكبر، وتسأل عن أصحابك الذين لم يعتبروا من آبائهم، ستجدهم جميعا عاشوا مقهورين وماتوا في القاهرة، تلك العاصمة التي لا يُعصَم فيها أحدٌ من الحزن، لأنك لا تذهب إليها سائحا، ولا تقيم فيها زائرا، ولا تسكن بها مواطنا، وإنما أنت تحت أقدام الجميع، ليس من قلة شأنك لا سمح الله، لكن لأنك في الغالب ستعمل «ملمع جزَم»، وما أكثر «جزم» القاهرة يا ولدي!

سأحكي لك أكثر وأكثر حين أعود، سأخبرك كيف رأيتُ الأهرامات، وكيف رأيتُ الفلل والقصور، وكيف يضع البهوات في أصابعهم ميزانية صعيدٍ بأكمله، ويقول الواحد منهم: هذه بخمسين ألف ورقة خضرا، وهذا الخاتم هدية بعشرين ألف، وتلك الساعة بسبعين ألف. سأحكي لك عن الفرق بين أكل العيش، وأكل الفينو، وبين العرق والبرفان.

اشتريتُ لكَ لعبة جديدة؛ قطارا ومعه السكة، حتى إذا كبرتَ وقال لك أحدهم: «فاتك القطار»، قلتَ له: «اشترى لي أبي القطار نفسه وأنا ابن عشر سنين».

قريبا جدا سأعود إليكم، قلتُ: أخّر المفاجأة يا واد يا عطية لآخر الجواب، والآن أخبرك يا سندي أنني حجزتُ تذكرة القَطْر، بعد أسبوع من الآن.

أبوكم الأسطى عطية الحاج.



(٣)

الحاجة ج. ع.

١ فبراير ٢٠٠٦.

الطريق إلى ميناء ضباء، السعودية.

أعزائي، أولادي الكرام، أحبابي الجيران، أبنائي الغاليين، أهل الشارع نفرا نفرا، أهل المنطقة واحدا واحدا، سلاماتي لكم حارّة كاملة دون برود أو نقصان، أما بعد..

اشتقتُ إليكم وأنا في حضرة النبي، واشتقت إليكم وأنا على عرفة، واشتقتُ إليكم من أول شوط إلى آخر شوط بالطواف، ودعوتُ لكم بالاسم كما طلبتم، وأخبرت الله عن طيب قلوبكم، ورجوته بجاه النبي أن يغفر لكم، وهلَّت بالجوِّ نسمة هواء، وأنا أقول آمين، فقلتُ: هذه أمارة الإجابة، الآن غفر لكم.

آه من منظر الكعبة يا ولاد، وآه من مشهد عرفات والبياض في بياض، والله كأنها الجنة، وآه من جوار سيدنا النبي، والدموع في حضرة سيدنا النبي، وآه من الروضة الشريفة. الشيخ المرافق لنا قال: ما بين المنبر والقبر روضة في الجنة، بكينا، قلنا كيف هي الجنة إذن إذا كانت هذه مجرد عشرين مترا منها؟ لا أتحدث عن الأنهار والأشجار والولدان والحوريات، وإنما أتحدث عن الراحة والخفة كأن الدنيا كلها سقطت وانتهت، كأنها كانت حلما مزعجا واستفقنا منه فوجدنا أنفسنا على الأرائك، وجارنا النبي، يدعونا للغداء.

آه يا ولاد من منظر الحجاج، ومن مكة وجمال مكة، آه من المدينة وحلاوة المدينة، والله صدق من قال طِيبة، وطيّبة، بها رائحة النبي وآل البيت، تمشي في شوارعها فتتخيل قدمك مكان قدم الرسول، آآخ!

ويا جمال البائعين حول الحرمين، القماش والقطيفة والصوف، ويا هَنا مَن اشترى، ويا هنايَ ويا هناكم، اشتريت لكلٍّ منكم ما يليق بمقامه العالي، القماش لكم، والسبَح والمصليات لأهل الشارع، والتمر للزوار والمعارف، وزمزم للأحباب شفاهم الله.

الآن نودّع أيام الله، بعد أسابيع الحج والعمرة، ونترك أرضا عزَّ على سيدنا النبي تركها، ونعود إلى بلادنا وأولادنا محملين جميعا بمشاعر مختلطة بين الشوق والشوق، شوقنا إلى الذي نفارقه وشوقنا إلى الذي سنقابله، فاللهم اجمع الشوقين في آنٍ واحد، ببيت حبيبك النبي.

هانت يا ولاد، بعد يومين سنركب الباخرة، ويأخذ الطريق يومين آخرين بإذن الله، ونكون وصلنا إليكم، ومعي أبوكم الحاج، حفظه الله، تعب معي كثيرا لكن كله بثوابه.

أولادي وأهلي وناسي، سلاماتي إليكم، وسلامات أبيكم الحاج.

إلى لقاء قريب جدا بعد أقل من أسبوع، إن شاء الله.

أمكم الحاجة.



(٤)

س. ف.

١ فبراير ٢٠١٢

أبي،

أعتذر لك أولا عن مخالفة أمرك اليوم بالذهاب إلى المباراة، فضلا على أني أخذت من جيب قميصك مائتي جنيه، لتكفيني بالذهاب والعودة، أنا الآن في المحطة، ننتظر القطار المتوجه إلى بورسعيد.

اعذرني، أعلم أني أغضبتك الآن، لكن المباراة مهمة جدا، وشدد الشباب على حضورنا جميعا، وكان لا بد من ذهابي رغم طلبك مني التركيز بدروسي، وخفت إن استأذنتك أن ترفض، وقلتُ إنني على كل حال سأعود دون أن تشعر بأنني ذهبتُ إلى محافظة أخرى، لكن شعرت بتأنيب الضمير، فكتبتُ إليك.

ودون أن تطلب، أعدك بعدم الخروج من البيت أسبوعا عقب عودتي، عقابا لنفسي على ما فعلتُه، ولأعوض اليوم الذي ضاع، وأصالحك بمذاكرتي. ستسامحني، اتفقنا؟

المهم، نحن كثيرون هنا، اطمئن، الهتافات والأغاني حماسية جدا، عددنا كبير، سنتحرك بإذن الله بعد دقائق، القطار على وصول، ثم نتوجه إلى الاستاد كما نحن، مجموعة واحدة كبيرة، وهذا ما سنفعله بالعودة كذلك. فلا تقلق.

لماذا أكتب إليك رسالة؟ لأنني لن أكون قادرا على مواجهتك حين أعود وأجدك ساهرا تنتظرني بعصبية وقلق، سأتسلل على أطراف قدمي، وأضع الرسالة بجوار باب غرفتك، وأمثل فورا أنني عدت إلى البيت وغصت في نومٍ عميق.

وأنت تقرأها سأكون دخلتُ غرفتي قبل دقيقة، لا توقظني لأنني سأكون خجولا من مواجهتك، وفي الصباح سأوقظك بقبلة على يدك وقبلة على رأسك، لنتصالح.

أحبك.



(٥)

ج. ك.

٨ فبراير ٢٠١٥.

أختي الغالية، سري الكبير،

تعرفين يا حبيبتي أنكِ أمي الثانية، وأحيانا أخي الأكبر لا أختي الكبرى، أسراري كلها بين يديك، ومصائبي جميعها تحفظينها في بئرك، ومهما هددتِني بإخبار بابا، تعودين لتؤكدي لي بأنك موضع ثقتي ولن تخوني هذا أبدا، ما دمتُ أتعلم من التجارب، ولا أفعل ما يغضب الله أو يغضب أبي في غيابه.

تذكرين أول مرةٍ -وآخر مرة- وضعتُ فيها سيجارة في فمي؟ تذكرين حين شممتِ أنفي رغم العشرين طنًّا من النعناع الذين مضغتهم؟ تذكرين حين توعدتِّني وبكيتِ وأنتِ تحدثينني خوفا عليّ؟ لم تخبري أحدا، ولم أعد إليها في حياتي

أبدا. تذكرين أول جوابِ حبّ؟ وأول مرة أركب فيها السيارة بدون أجرة؟ وأول مرة أهرب فيها من المدرسة؟ وأول جواب استدعاء ولي أمر؟ وأول «صفرٍ» أخذته في الحساب ووقعتِ على النتيجة كأنكِ أبي؟ تذكرين كل مرةٍ كانت أول مرةٍ؟ ووعدتُّكِ أن تكون آخر مرة وكانت بالفعل كذلك؟ حفظتِ سري وحفظتُ وعدي.

حبيبة قلبي أمنية، أمي الثانية، وأختي الجميلة،

اسمحي لي أن أخبركِ أنها أول مرة، وأعدك أنها ستكون آخر مرة، أذهب فيها إلى الاستاد مع أصدقائي إلى مباراة الزمالك بدون إذن، أنتِ أكثر مَن يعرف حبي له، وتعلمين كيف يؤثر بمزاجي، وكيف يقلب حالي كله، فاسمحي لي وسامحيني أنني ذهبتُ اليوم من دون إذنك أو إذن بابا، اتركي لي المفتاح أسفل الدواسة، أمام باب الشقة، وفور وصولي سأدخل إليك بغرفتك وأصالحك بألف قبلة على رأسك.

ولن أنسى الشكولاتة، أحبك.

أخوكِ الصغير، وابنك الأول.





يتعذَّر إرسال الرسالة،
من فضلك
حاول في وقت لاحق..

(١)

٤ يونية ١٩٦٧.

إلى ابن خالتي الغالي،

جندي مقاتل، عزيزي محمد،

سلاماتي الحارة، للأرض الحرة التي تقف عليها الآن، سلاماتي من البيت الموحش من غيرك كل ليلة جمعة، من الشارع المظلم من غيرك كل طلعة صباح، من القرية منزوعة البركة لأنك غائب عنها منذ ثلاثة أشهر، إلى الجبهة التي تقف فيها أسدا، في جيبك مصحفك، وفوق كتفك سلاحك، وفي يدك ورقتك وقلمك تكتب بهما إلينا الجوابات، وأفهم من بين السطور، حين تسأل عن الصبية والصبايا، أيّ الكلمات تقصدني بها.

الشارع كله يا محمد يذكرك بالخير، أمك ترفع رأسها بك، وأبوك زعيم كل مجلس على المصطبة، يسألونه كأن ابنه قائد

المخابرات، ونضحك كلما حكى لنا كيف يستوقفه الناس في الشارع ويستفسرون منه بصوت منخفض عن خطة الحرب، وعن ميعاد الضربة الأولى، وعن ساعة الصفر.

أتابع أخباركم من الجورنال، تعليمك لي القراءة والكتابة نفعني، قلتُ لنفسي: الآن جا وقتُه يا سعاد.

كل يوم أقرأ الجورنال لأمي، ترى صور الجنود في الخنادق، تشير إلىً أحدهم وتقول: هذا محمد، أقول لها: لا يما، محمد أعرض من هذا قليلا، تقول: إذن هو ذاك، أقول: لا يما، ولا هذا، شَعر محمد مجعد عن هذا قليلا، تنظر إليَّ وتضحك كأنها تستجوبني، ثم تمصمص شفتيها وتقول: عشنا وشفنا يا بنت فاطمة.

كأنهم يعرفون؟ أتوقع ذلك، لكن لا يقولون شيئا يا محمد، أمي وأمك حين تجلسان معا، نصف الحديث يكون عني وعنك، وأعلم هذا، لكنهما لا تسمحان لي بالجلوس أثناء حديثهما، فأعرف أن الموال بدأ، والغمز واللمز في طريقه، وتنظران كل منهما إلى الأخرى، ثم تنظر كل واحدةٍ منهما إليَ، فأضحك، وفجأة ينتهي الضحك بمصيبة على رأسي، حين أشاركهما فيه، فتقولان: قليلة الحيا.

لا تتأخر يا محمد، أعلم أنك سيد الرجالة، سترفع رأسنا عاليا، ستأتي والعلم يرفرف فوق القطار الذي سيأخذك

من الوحدة إلى المحطة، وفوق السيارة التي ستأخذك من المحطة إلى البيت، وفوق البيت، وكل بيت يا محمد.

أفتخر بك، لكن في نفسي، أكتم كل هذا الاعتزاز بالرجل الذي على لسان الجميع بالبطولة والفداء، وتدفعني مشاعر غرورٍ وفخرٍ قاتلة، ولا أستطيع أن أذيع حبي وشوقي إلا لوسادتي كل ليلة.

كوفيّتك التي نسيتها عندنا، تتذكرها؟ طبعا تتذكرها، مثلتَ أنك نسيتها في بيتنا ليلة سفرك، ففهمتُ قصدك، خبأتُها، وقلت لأمي: اختفت فجأة، لكنها هنا معي، شاهدة على دموعي، وتهون عليَّ نيران قلبي، حين آخذها بحضني كل مساء، وأغلق الباب لألف بها عنقي، وأشم فيها رائحتك التي لا تزول يا محمد.

ولا أعرف يابن خالتي، هل الرائحة في الكوفية منذ ذلك الحين، أم في رئتي؟!

كوفيَّتك هي أغلى هدية، هي «ريحة الحبايب»، يا ... (أنت عارف).

عُد لي قريبا، صاغ سليم.

بنت خالتك العزيزة، و.... المصون: سعاد.



(٢)

١٨ فبراير ٢٠٠٢.

من زوجتك، أم عيالك،

إلى زوجي الأُسطى، أجدع أسطى، عطية أفندي الحاج.

تأخرتَ كثيرا يا عطية، وشوقي إليك ذوَّبني، أخذتك مني القاهرة القادرة؟ عرفتَ الأجمل مني هناك؟ يقولون إن الشقراوات عندك «على قفا من يشيل»، وأنت -اسم الله عليك- شيال قد الدنيا، تأخرتَ عليَّ يا عطية، لا تتضايق مني، مَن لي غيرك يتحمل لساني وغيرتي وعقلي الصغير؟ لكن قلبي كبير كما تركته، يسعك وحدك، ويضيق بالناس.

بخصوص البيت، والولد، والمصاريف، اطمئن، كله بألف خير، لا ينقصنا في الدنيا غيرك، الدار ينقصها قدمك، والطبلية ينقصها يدك، والشارع ينقصه حسك، كل شيء ينقصه أنت يا سي عطية.

يسألني الناس عنك، يقولون تأخَّر، وأقول سيأتي الأسبوع القادم، ويأتي بدلا من الأسبوع عشرة ولا تأتي يا عطية، فيمرون حينها دون أن يسألوا، يبتسمون، أو يضحكون بعدما يديرون وجوههم، وأنا أعلم ما يفكرون به، وتصلني وشوشَتهم؛ «عطية تزوج ببنت بيضا من مصر»، وأضحك، وأقول بكل ثقة: «عطية عينه مليانة، وتكفيه السمرا الأصيلة»، صح يا عطية؟

اعذرني صدَّعتك كالعادة، لكن الكلام كثير والحديث ليس له آخر، وأنا أعلم أنك على قدر راحة بالك من ثرثرتي، تشتاق إليها، وأعرف يا عطالله أنك تغتابني مع صُحبتك، وتقول للأفندية إن لي زوجة رغاية، وتجعلني عبرةً في الزنّ وكثرة الكلام، لكنك تعود وتقول: أصيلة وبنت حلال؛ صانت بيتي في غربتي، وتاجرت بالقرشين فأتت بأربعة، ودبرت قرشا ووفرت ثلاثة، وأعود فأجد البيتَ كيومِ تركتُه، به قوتُه، ويزداد خَزينُه، والولد بأحسن ملابس، وبنت الناس بأفضل حال.

لا تغِب أكثر من ذلك يا رجل، وأستحلفك بالله، لا تتعب نفسك، لا تشتر لنا شيئا من القاهرة، لا الأزهر ولا الغورية، تغور بالغالي والنفيس، نحن هنا نرضى بالقليل، وقليلنا به بركة عن كثيرها، والرخيص هنا غالٍ بمَن اشتراه، والحمد لله.

أقول لك سرا؟ أنا مَن اشترى هذه المرة، كل مرة تشتري لنا كل شيء من المحروسة، قلت: هذه المرة عليّ، اخترت القماش على ذوقي، واللون سمني يليق بمقامك، والتفصيلة بلدي، والخياطة يدوي، تحويشة شهر لكن تهون لأجلك يا عطية، ويدوب التوب في عرق العافية.

يا عطية، قسما بالله لن تتكرر، لن أسمح لك بالغياب إلى هذا الحد مجددا، رجلي على رِجلك، ذبت من الشوق، وأبلغت الطيور تنقله إليك، والله شاكة تكون وصلت، فذبحتها وعملتها في شوربة! وبألف هنا على قلبك شوقي!

ثم إن حسابنا عسير يا عطية، أسبوع كامل بلا زيارة واحدة في الحلم؟ ضايقتك في شيء؟ مهموم من شيء؟ هل أصابك شيء؟ لا تخبرني بجواب، ولا أنتظر ردك في رسالة. تعالَ بنفسك وأخبرني.

دعواتي وسلاماتي،

زوجتك المخلصة.



(٣)

١٥ يناير ٢٠٠٦.

إلى الحاج والحاجة، أمي وأبويا، ضيوف الرحمن،

لولا أنكما في ضيافة الله وبين بيته وبيت نبيه، لما صبرنا على غيابكما الطويل، لكن هانت، نعد الأيام حتى عودتكما، تبقى أقل من ثلاثة أسابيع بإذن الله، لعل الرسالة تصل بالبريد السريع قبل سفركما، وتصلكما سلاماتنا قبل أن تصلا إلينا.

نكتب هذا الجواب ونحن جميعا متحلقون حول عبدالواحد، نمليه ويكتب نيابة عنا بالكامل، البنات والشبان، كلنا بخير والحمد لله، اشتقنا إليكما جدا، لا بركة في غيابكما، وجربنا هذه الأشهر من غيركما فبدت الحياة أثقل من أن نحملها جميعا، بدونكما، ما السر في خفة الحِمل حين تحملانه وأنتما اثنان، وثقل الحمل حين نحمله نحن الثمانية؟ لا ندري، هو شيء ليس ملموسا أبدا لكننا نشعر به في وقتٍ واحد، ولا نستطيع أن نفسره.

المهم، كيف كان النبي يما؟ أبلغتِه سلاماتنا؟ وكيف كانت الروضة الشريفة؟ كنتِ تحلمين ليل نهار بزيارة الحبيب، ونتحرق شوقا الآن لتخبرينا كيف كان اللقاء، وكيف كان السلام، نتخيله كان ينتظرك من بين الناس جميعا، يقول للحراس: دعوا «صابرين» تمر، أدخلوها هي أولا.

وكيف كان عرفات يابا؟ كيف كان جبل الرحمة؟ وكيف كانت زمزم؟ نتخيلك شربتها كلها وما تركتَ للمسلمين من بعدك لترا واحدا، كنتَ تحكي لنا عنها وعن شوقك إليها، تقول إن صحتك لن تعود كما هي إلا بزيارة الحرم والشرب من زمزم، عساك طِبتَ وشُفيت ورويت الآن يا حاج. لا تنسَ نصيبنا معك، ولا نصيب أهل الشارع. جدي كامل يسألني عنك في كل صلاة، ويوصيني وهو يضحك: قل للحاج يرد الجميل، ويجيب لي من زمزم برميل.

العمال يدهنون البيت، وسنرسم غدا الباخرة، ونكتب فوقها ألف مبروك للحاج والحاجة، حج مبرور وذنب مغفور. اخترنا لون واجهة البيت سماويا، كي يناسب طلتكما البهية ووجهيكما المشرقين، ما شاء الله.

وصحيح، البنات اجتمعن للغناء من الآن، يوم ويوم، لكن من الأسبوع القادم بإذن الله سيجتمعن للغناء كل ليلة.

يرددن الآن على لسانكما، بينما نكتب الجواب ويدهن العمال واجهة البيت: «يا رايح بلدنا.. يا بشير يا بشير يا رايح بلدنا.. قل لولدى العزيز يبيَّض عتبنا.. ببوهية وزيتى.. نقرش البوابة ببوهية وزيتى.. واكتب حجتى على باب بيتى».

والعيال يا حجاج، ينتظر العيال الهدايا كأن غيابكما لا يعنيهما بشيء، أو كأنكما كنتما في رحلة إلى العتبة يومين، لا في رحلة إلى الحجاز ثلاثة أشهر، يسأل كل منهم عن ميعاد الباخرة، ولا ينامون حتى يعدوا الليالي الباقية على العودة، ونسألهم فيقولون: اللعبة تأخرت، ولا يقولون: جدي وستي تأخرا.

المهم، كونا بخير، وتمهّلا وأنتما تركبان العبَّارة، ولا تقتربا من السور ولو على سبيل مشاهدة البحر، البحر غدار يابا، وأنصتا جيدا للأمن في السفينة، وتعليمات الأمان، ولا تخلعا جاكيت الإنقاذ أبدا حتى تصل «السلام ٩٨» إلى سفاجا المصرية بألف سلام.

أولادكما، اسما اسما.



(٤)

١ فبراير ٢٠١٢.

ابني الغالي، وصديقي الصغير،

أكتب هذا إليك لأعاتبك، وهذه المرة في جواب، لأنك تحب الاحتفاظ برسائلي المكتوبة، سأفعل ذلك الآن لتعود إليه كلما فكرتَ في إغضابي، وتتذكر أن لك أبا صديقا، يحبك، لكنه لا يحب أن تفعل شيئا من دونه، أو من دون إذنه، وهذا عهد الأصدقاء.

ابني الجميل،

لكلِّ مرحلةٍ اهتمامات، ولكل زمنٍ أولويات، أنت تعلم أن الإجازة ملكك، وتقضيها كلها بين النادي والاستاد، ولا أعترض إلا أن تأتي إلى البيت متأخرا.

وتعلم كذلك أن الدراسة ملكها وقتك، وهي أولوياتك لعدة أشهر فقط في العام، واتفقنا على هذا من قبل، واتفقنا على

أن نتابع المباريات معا في البيت، أو في المقهى حين تزعجنا ماما بأسئلتها عن بديهيات كرة القدم، كسؤالها كل مباراة في الدوري: أين رونالدو؟

اتفقنا على أن تخبرني بنيَّتِك، برغبتك، بما تحب أن تفعله، ونتناقش، ثم نرى ما الذي نستطيع فعله، وما ليس مسموحا لنا بالقيام به في وقتٍ معين، لكنك لم تفعل ذلك، ولم تفِ باتفاقنا، ولذا كان غضبي منك، وعتابي عليك، وانقطاعنا عن الحديث يومًا فور عودتك، لا أريد فيه أن أسمع منك أي شيء، هذه المرة لم تُراعِ حبي لك، وبالتالي، تحمل عواقب ذلك.

وأعود وأقول لك إنني أحبك وحريص عليك، ودعني أصارحك هذه المرة بسرٍّ ستقرأه حين تعود بالسلامة، أن قلبي كان مقبوضا اليوم، ومن ليلة أمس وأنا لا أستطيع النوم، أدخل غرفتك، أنظر إليك، أعود لغرفتي، وأفكر بك، لا أعلم لماذا اليوم تحديدا، فأرجوك، لا تكررها، وارحم قلبي الذي يحبك، وكلمتك التي تقطعها على نفسك، يا باشمهندس.

قبل الماتش بساعتين،

بابا الزعلان منك جدا.



(٥)

٨ فبراير ٢٠١٥.

إلى أخي الزمالكاوي جدا،

ألم تقل سنظل أوفياء؟

حبيبي الصغير، وابني الأول، وتوأمي الذي تأخر عني في بطن ماما خمس سنوات، وصديقي العاقل، الأصغر مني في العمر لكنه كبير العقل، وصديقي المجنون، الذي لم يترك في حياته شيئا إلا جربه، ويأتيني مدلدل الأذنين، فأعرف المصيبة التي فعلها من مجرد النظر في عينيه.

هذه المرة؟ آسفة، أعتذر لك عن قبول عذرك واعتذارك، ولا قبلة على يدي ولا ألف قبلة على رأسي ستجعلني أرضى عنك بهذه السهولة، لأن بيننا اتفاقا أن أحفظ لك أسرارك إلم تكن خارج الصندوق، وهَأنتَذا تفاجئني بفعل خارج الصندوق ككل مرة، بل خارج المنطق أصلا، تعرف إلى أي

مدى تعصب بابا حين علم بغيابك من الدرس الشهر الماضي ومشاهدتك لمباراة في المقهى، تخيل ماذا سيحدث إن علم بأنك تركت الدرس وذهبت إلى الاستاد؟! الاستاد مرة واحدة يا رجل!

صديقي الأطول مني،

لا يغرنك أن صوتك اخشنَّ، وعودك زاد، وجسمك امتلأ بالعضلات، وتحت أنفك خط بدأ يظهر كسربٍ من النمل، مهما كبرتَ ستظل صغيرا في نظرنا، ليس صغير المقام، ولكن صغير العمر، طفلا يجب أن تعود إلينا في قراراتك، وتخبرنا بمغامراتك قبل بدايتها.

بالنسبة لسرك، فلن أعتبره سرا، انسَ أنه سر إذا تأخرتَ بعد موعد انتهاء المباراة أكثر من ساعة واحدة، يمكنني أن أعالج الأمور إلى هذا الحد، أما إن تأخرتَ أكثر، حتى ولو لم يسألني بابا، سأذهب إليه بنفسي وأبادر بإخباره.

من فضلك، لا تكررها، أحبك، وتصرفاتك هذه تجعلني غير راضية عنك، أيهون عليك قلب أمنية؟ لا تتأخر، في انتظارك وراء الباب بعصا المقشة.

أختك الوحيدة، وأمك الثانية.





حين لم يصل الساعي..

(١)

٥ يونية ١٩٦٧،

جندي مجند م. س.

من قلب الحرب وتحت القصف،

أمي العزيزة، أما بعد..

الوضع أصعب مما ظننا، والعدو أقرب مما تخيلنا، وأشعر أن هناك شيئا كبيرا يدبره القدر لنا ولا نعلمه، لكن على كل حال، أنا ثابت مكاني، ولن أعود خطوة واحدة، حتى تعود الأرض دفعة واحدة.

الأرض يا أمي، تذكرني بأرضنا، الوطن الكبير يذكرني بوطني الصغير، الفارق أن الأرض التي تضم بيتنا وحياتنا مزروعة بالخضار ومروية بالماء، والتي أدافع عنها هنا مزروعة بالبشر ومروية بالدم، فلن أعود إلى تلك حتى تعود هذه.

أحبك، قبلاتي ليديك، لرأس أبي، لخدود الجميلات ستات البنات، وسلاماتي الحارّة لخالتي فاطمة، وبيت خالتي فاطمة، وأخص بالذكر سعاد.



(٢)

٢٠ فبراير ٢٠٠٢،

ابني البِكر، سندي وضهري،

آمل أن تصلك هذه الرسالة دون أن تنقص حرفا واحدا، بدايةً سامحني يا ولدي على كل شيء، على كل غياب وكل حضورٍ ناقص. غبتُ عنك بالشهور، وحرمتُك مني طوال هذه السنوات، وقضيتَ عمرك الصغير كأنك يتيم، كأنك ابنٌ لأبٍ ميت لكنه يملك مكتب بريد في قبره، يرسل إليك منه كل أسبوعٍ جوابا يخبرك فيه أنه يحبك.

وأنت تحبه، تحب ذلك الأب المجهول، الأب الذي تعرفه من الرسائل فقط، الأب الذي من ورق! وتحبه حب الطفل لِلُّعب والملابس، لأنها هي كل ما تراه منه، أما هو نفسه، الأب الحقيقي؛ فإنك لا تراه.

ابني الحبيب، ولدي الغالي، أجمل رجالة الصعيد،

الله يعلم أنه لم يكن اختياري وإنما اضطراري، ليس رغبة في البُعد ولا زُهدا في القرب، وإنما لأنني جربتُ الجوع فأردتك أن تعرف الشبع فقط، وجربتُ الحاجة فأردتك أن تعرف الكفاية فقط، وجربتُ النوم على الإسفلت فأردتك أن تعرف السرير فقط، وكي لا تعيش أقل من أحد، وكي لا ترى ما رآه أبوك حين كان في مثل عمرك.

أكتب إليك هذا لأوصيك بأمك، ولتضعها في عينيك، ولأستأذنك فقط، إن أذنتَ لي، أن أغيب. وإلم تأذن فأنا مستعد لأنْ آتيَ في موعدنا كما اتفقنا، لكنني أستأذن، فهلا سمحتَ لي أن أتأخر قليلا؟

كن كما عهدتك دائما سيد الرجالة، وبمناسبة القطار اللعبة والسكة؛ اكتشَف أبوك الآن، أنه أحيانا، يكون من الأفضلِ لك أن يفوتك القطار!

أعطِ الجواب لأمك.



زوجتي العزيزة،

(هذا الجزء مخصص لك، اقرئيه على انفراد، ولا تريه لأحد).

ست ستات القرية، وجميلة جميلات الصعيد،

تعلمين يا بنت الناس كم أحببتك، وكم أنفقتُ من عمري لأتزوجك، وكم أنفقتُ من عمري لنبقى في ستر الله بعد زواجنا، وكم مرةً ظهرتُ قويا لأجلك، وكم مرةً بكيتُ كالطفل على صدرك، وكم حُرمنا معا كي لا نمد أيدينا لأحد.

أعرفُ أنك تحفظين هذا كله عن ظهر قلب، لكن حتى لا يلعب الشيطان في رأسك ولو لحظة، ويقول لك: تأخر عنكِ عطية بمزاجه، أو كان الغياب على هواه، أو الغربة راقت له. وحتى إذا جاءكِ الوسواس وضعتِ الجواب في عينيه، أكتب لك هذا.

حبيبتي، وبنتي، وأم ولدنا البكر،

آسف أنني سأتأخر، لكن هذه المرة والله ليس لأكل العيش حتى، وإنما لأنها أول مرة في حياتي ألحق بالقطار، وحين ركبتُ قلت: يا عالم! أخيرا لم يفُتني القطار! ويا ليتني ما لحقتُه، ويا ليته فات.

تحت المرتبة الأولى من السرير، بعدما تفكين الخيط، ستجدين بين القطن مبلغا ادّخرته ليوم كهذا، هو كل ما جنيته من أعوام العذاب، ليسوا كثيرين، لكن فيهم البركة، وأنتِ خير من يتاجر بالتراب ويكسب الذهب.

وصيتي كالتالي: لا تنسي ركعتي الضحى، ولا سورة البقرة كل أسبوع، ولا المية بملح، ولا البخور في البيت. ويا نني عيني، الواد في رقبتك، عقد لا ينفرط، وحبي لك في رقبتك، قلادة وسط العقد، والبيت في رقبتك، خزينة أمينة للعقد. وأمانة عليكِ، لا تخبري الولد بتفاصيل ما سيحدث إلم يأذن الله لي بالعودة. كوني بخير، واهتمي بصحتك لأجلي، وعلى كل حال، ستصلك الأخبار مع الجواب.

حبيبتي، الآن يقول الناس عني مجنون، الصراخ في كل مكان، والنار تأكل العربات، والقطار يدخل جهنم بينما يدخل أهله الفردوس، وأنا أكتب لك: أحبك.

ذكرى زواجنا العاشرة،

زوجك المخلص عطية،
قطر مصر الصعيد.



(٣)

٣ فبراير ٢٠٠٦.

عبارة السلام ٩٨

الطريق بين ضباء السعودية وسفاجا المصرية

أولادي الأحباب، لا أعلم ماذا يحدث، ولا كيف أكتب لكم الآن، ولا ماذا أكتب بالتحديد، كل ما أرجوه منكم أن تدعوا لنا كثيرا إذا سمعتم بأي سوء، وأن تسترجعوا الله فينا، وتقولوا إنا لله وإنا إليه راجعون..

كنتُ أقول: حجة يا رب قبل ما أموت، وأكرمني بعظيم كرمه، وعلى ما يبدو فإنه ميعاد استرداد الأمانة.

يقولون إن الباخرة بها عطل، أو البحر به عطل! كل دقيقة بتفسير، ولا نعلم المشكلة بالتحديد، لكننا نعلم جيدا أننا في مشكلة كبيرة، والبحر غدار، وفي وسط الليل الكاحل، لا

أعلم لماذا أكتب الآن، لكن الجميع حولنا يقولون الشهادة، وأرددها معهم أنا وأبوكم الحاج.

أبنائي الأعزاء، لا أدري هل ستصلكم هذه الرسالة أم لا، هل ستنجو ونغرق أم تغرق وننجو، هل سيلتقطها أحدهم قبل البحر، أم ستغوص معنا، أم ننجو جميعا، الله أعلم، لكنني كما تعرفون، في أسوأ لحظات الدنيا وفي أحسنها، أحمل القلم الصغير والقصاصات في صدري، والآن في هذه الساعة تحديدا، وجدت الكتابة إليكم خير سلوى، ولا شيء أنسب منها.

كونوا جميعا بخير، سنعود بإذن الله، وهذه الرسالة، إذا لا قدر الله، لا قدر الله، حصل مكروه.

أمكم الحاجة.



(٤)

هل تعرف كيف تُواجَه بالكُره حين تواجِه بالكرَة؟

هل تعرف كيف يكون لون قميصك الأحمر مبررا لأن تتلون كلك بالأحمر؟ فقط انتماؤك هو جريمتك، وصوتك هو تهمتك، والأغنية التي ترقص عليها، هي السبب الوحيد الذي يجعل رقصَك مذبوحا، أمرًا طبيعيا للغاية.

أبي الغالي،

أولا: سامحني على تأخيري،

ثانيا: سامحني على كل شيء.

على كل يوم لم أطعك فيه كما ينبغي، سامحني على كل ساعةٍ لم أكن فيها بجوارك، سامحني على كل دقيقةٍ سيشعر فيها قلبُك -بدايةً من الليلة- بالألم، سامحني على كل حصةٍ فوتُّها من دروسي، وجمعت ثمنها، واشتريتُ بها تذكرة لمباراة، سامحني على كل هروبٍ من ورائك إلى ملعب

التِّتش، سامحني على كل وقتٍ تسللتُ فيه لتجمع الأولتراس دون استئذانك.

ثالثا: سامحني أنني سأتركك مبكرا أكثر مما ينبغي.

أبي العزيز،

أنا الآن راقدٌ في الأرض، أرى اللاعبين من قُربٍ لأول مرة، سعيدٌ جدا برؤية وجوههم قريبة إلى هذا الحد، مثل الصور في غرفتي، لكنها من لحم ودم. هم الآن حولي؛ أحدهم يلقنني الشهادة، وأردد وراءه بلا تفكير، ولا أفهم ما الذي يحدث غير أنني فقدت الوعي، ثم أفقت، ثم أملي هذه الرسالة وأنا لا أرى شيئا إلا اللون الأحمر.

لم أكن أعلم يا أبي أن الأمر يستحق كل هذا، ولم أكن أدري أنَّ الموضوع سيتخذ هذا القدر من الجدية، ولا أعرف هل سأعود الليلة أم غدا. كل ما أراه الآن هو أن اللون الأحمر يزداد توهجا، والوجوه العادية حولي تتحول هي كذلك إلى الأحمر، لكن بالتدريج. أشعرُ أن اللون انسكب من الفانلة إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى الاستاد، أود أن أسأل: هل كل هذه الأماكن الغارقة في الأحمر، أهلاوية مثلي؟

سمعتُ قديما عن ناس يموتون وقاتلهم الطَّعم، طعم السم، وعن ناس يموتون وقاتلهم الرائحة، رائحة الكلور المسمم،

لكن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها عن ناسٍ -وأنا منهم- يموتون وقاتلهم اللون! اللون الأحمر.

بابا الغالي،

هل تتذكر حلم الهندسة؟ هندسة الديكور ، حلمي الكبير؛ والباشمهندس راح، الباشمهندس جه، الثانوية على وشك الانتهاء، وبعد ٤ أشهر كان موعدي مع تحقيق الحلم، هل سأتأخر عنه قليلا وأمتحن بعض المواد في الصيف؟

هل تتذكر «عليًّا» يا بابا؟ الدكتور علي، صديقي الذي لا تناديه إلا بالدكتور، وتعاقبني بذكره دائما، وتقول إننا متطابقان في كل شيء عدا الدراسة، لأنه مهتم بها أكثر من اهتمامي، هل تتذكر حلمه دخول القصر العيني كأصغر طبيب؟ اليوم سيدخل القصر العيني كأصغر جثة. الآن صرنا متشابهين أكثر من أي وقت يا أبي.

هرب معي هو الآخر من الدرس إلى الاستاد، وسبقني! حتى في هذه سبقني، سقط أولا! ورأيتهم يحملونه ويقولون: أصغر شهيد يا ناس!

يا أبي،

سرٌّ أخير، ستأتيك دعاء، ابنة الجيران، ستقول البقاء لله يا عمي، وتنصرف. لا تدعها تكتم كل هذا الحزن في قبلها،

أخبرها بأنني قلتُ لك السر منذ زمن طويل وخبأته عنها، وحكيتُ لك عنها كثيرا، بأنني كنتُ سأتقدم إليها بعد الثانوية العامة.

أخبرها بأنك منذ عامين ونصف، تعلم أنني أحبها، وتعدني بطلب يدها لي فور الفوز بالكلية، ستقول لك: البقاء لله، قل لها: شدي حيلك أنتِ يا دعاء، ابني كان يحبك حتى آخر لحظةٍ في حياته، وأوصاني أن أبلغك السلام..

حينها فقط يا أبي، لن تموت دعاء من البكاء.

أبي، اطمئن. نحن كثيرون هنا ولن أذهب إلى أي مكانٍ وحدي. أسأل اللاعبين: لماذا تلقونني الشهادة؟ يقولون: لتنسى الجرحَ قليلا، قالوا لي لن أموت، وأنا أصدقهم. قبل كل بطولةٍ كانوا يقولون: سنأخذها، ويأخذونها، بعد كل إخفاقٍ كانوا يعتذرون، ويكون عذرهم معهم، والآن يخبرونني بأنني سأعود معهم في الطائرة، أفلا أصدقهم؟

لكن يا أبي،

دائما تكون عالِما بالأسرار أكثر مني، حريصا على نشرة الأخبار أكثر من حرصي على نشرة الرياضة، تحفظ أسماء الوزراء أكثر مما أحفظ أسماء اللاعبين، وتملك الجواب على كل سؤال يبدأ بكيف أو لماذا.

الآن أخبرني بصراحة، بالتفصيل، أقصد حين نلتقي، كيف حدث ما حدث؟ ولماذا حدث من الأصل؟ الشباب هنا يصرخون: أرجوكم اخلعوا الأحمر، لا أفهم! هل لو كنتُ أرتدي شيئا غير الأحمر كنت سأنجو من هذه الضربة؟ هل لو كنتُ أرتدي الأبيض كنتُ سأنجو؟ هل القصة في لون القميص أم في الصدر الذي وراءه؟ أم في القلب الذي وراء الصدر؟ هل لو مشيتُ عريانا سيكفي ذلك لبراءتي؟ أنا أرتدي الأحمر، مَن طلب منهم تلوين جسمي باللون نفسه؟

أبي،

من المسؤول عن هذه الضربة؟ كل الضربات كانت متشابهة، رأيت عليًّا يموت أمامي بضربة سيف، بكيت وضحكت، قلتُ إن التاريخ يعيد نفسه! وعلي الطالب يشبه عليا بن أبي طالب! ضحكتُ يا أبي من الهم، من البكاء، من كل شيء لا يفسَّر إلا بالسكوت، من كل سؤال لا يُجاب إلا بالصمت، من كل موتٍ كانت جريمته الوحيدة، حبه للحياة.

الصوت يا أبي يخفت، لأول مرةٍ أسمع صوت اللاعبين أعلى من صوت الهتاف حولهم، بل إنني صرتُ لا أسمع صوت الهتاف إطلاقا، الآن أسمع الشهادة بوضوح، الآن أرى الحمرة تتحول إلى بياضٍ كبير...

أبي،

أخبرهم أن يخرجوني من غرفة اللاعبين،

أبي،

أريد المدرجات.

غرفة اللاعبين. ستاد بورسعيد.

١ فبراير ٢٠١٢.



(٥)

أمنية، نحن نموت!

الآن نحن محبوسون في ممر ضيق، الجميع يتدافع، ولا أحد يفهم شيئا! ما الذي يحدث؟ ولذلك، عديني فورا ألا تخبري بابا إن تأخرت قليلا، لا أعلم ما الذي سيحدث أو كم ساعة سأتأخر، لكنني سأعود، وأقبل يدك ألف مرة، أعدك، والله لن تتكرر.

أمنية، مات شاب بجواري!

هذه أول مرة في حياتي أرى أحدهم يموت أمامي!

أمنية،

ما الذي فعلناه؟ نحن لسنا في ستاد بورسعيد، إن كان الخروج من القاهرة تهمة، ولا في ظلمة الليل، إن كان القتل بالليالي

مباحا، ولا تحت سيوف البلطجية، إن كانت سيوف البلطجية أداة لها نفوذها فلا تُسأل عن نفاذها في أجساد الأبرياء، ولا في مظاهرة، إن كانت المظاهرات حراما، ولا نهتف ضد أحد، إن كان الهتاف ضد أحدٍ ما، يدفعه إلى اقتلاع الحناجر، ولم ندخل بدون تذاكر، بافتراض أن نسيان التذكرة مبرر للقتل! نحن لا نفعل أي شيء، غير التشجيع، ولا ننتمي إلى أي شيء، غير «التالتة يمين»، أمنية، الحقونا، بنموت.

أحب الزمالك!

ولآخر نفَسٍ فيَّ سأظل أحبه، وسأبقى إلى آخر ثانية في حياتي أختار بكل ملابسي اللون الأبيض، سأذهب إلى حفل تخرجي بتيشيرت الزمالك، سأقابل التي أحبها لأول مرةٍ بتيشيرت الزمالك، سأحضر فرحي ببدلة بيضاء وسأخفي تحتها تيشيرت الزمالك، سيقول البعض إنه مجنون، وسيقول البعض إنها موضة في أوروبا، وسأقول لا هذه ولا تلك، وإنما لأنني أحب الزمالك!

حبيبتي، أحب اللون الأبيض، تعلمين ذلك، أحب ستائر بيتنا البيضاء، وجدران غرفتي البيضاء! في عيد ميلادك أهديتك

ساعة بيضاء، في عيد ميلاد أمي أهديتها وردة بيضاء، حتى في طفولتي، زيّ مدرستي الأحمر في الابتدائية كنت أرتدي تحته تيشيرتا أبيض. فهل المشكلة في اللون؟ أم المشكلة في حبنا له؟ أرض الله الواسعة تتسع لألف لون، فلماذا لا تتسع هذه البلاد إلا للونٍ واحد فقط؛ الأسود!!

أمنية، والله هذا يحدث الآن،

كنتِ ببعض الأحداث، تتابعين الأخبار، تربطين بعضها ببعض، تضحكين وتقولين: إنها «سخرية القدر»، وكل مرةٍ أسألك فتشرحيها لي ألف مرة ولا أفهمها، حتى مللتِ من الإجابة ويئستُ من السؤال. حبيبتي الآن فهمت! والله فهمت! الآن نسمع من الاستاد مع صوت القنابل وصراخ الناس، وأغنية تشغلها الإذاعة الداخلية للملعب، ونسمعها بوضوح، ربما غير مقصودة لكنها حقيقية، الآن أسمع الأغنية: «ساعة الفراق متلومش حد على اللي قاله، وأهو كلمتين بيهونوا الجرح اللي فينا، وأهو كل واحد بعدها بيروح لحاله، مش كل حاجة نعوزها نلقاها في إيدينا»! ونحن «معوزناش» غير وطن يسعنا جميعا يا أمنية، لم نرد إلا الحياة، صعب أن نرى الحرية في أيدينا بدلا من القيود؟ صعب أن ندخل الاستاد بدلا من المشرحة؟ صعب أن نصرخ «شمس الحرية» بدلا من «افتح بنموت»؟ صعب أن تكون التذكرة مجرد تذكرة

لمباراة كرة قدم بدلا من أن تكون تذكرة للآخرة؟

الآن أسمع تكملة الأغنية أكثر وضوحا يا أمنية: «في الدنيا مين يعرف نهاية اختياره؟ في حاجات كتيرة بتبقى غايبة عن عينينا».. أي حب ذاك الذي هان يا أمنية؟ حب الوطن؟ لم يهن أبدا، بل لأنه لم يهن علينا، نحن مطحونون في هذا الممر الآن! حب الزمالك؟ حين اخترتُ هذا القميص الأبيض، شعرتُ أنه غريزة لا اختيار، وكانت أقصى نهاية أتوقعها لاختياري هي الموت من الفرحة إن فاز بالدوري! الموت من الحزن إن خسر الكأس! الموتُ من العصبية إن ظلمنا الحكم! الموتُ من السخرية إن عاقبَنا اتحاد الكرة! لكن أن نموت بالتدافع والغاز لأننا -فجأة- ونحن في الممر، صرنا ممنوعين من الدخول، ممنوعين من الخروج، ممنوعين من الذهاب، ممنوعين من العودة؟ فهذا بالضبط ما كان غائبا عن عيني.

أمنية، عيني، عيني لا أرى بها،

أنا أموت!

يطلقون علينا الغاز بكثافة، الجميع يتساقط من حولي، ولا أستطيع التماسك أكثر من ذلك، سأسقط الآن أو بعد دقيقة أو بعد عشر دقائق، أنا أموت يا أمنية، وهذه المرة لا تحفظي

سري، ليس سرا، بل أخبري الجميع!

نفسي ينقطع ولا أستطيع مواصلة التنفس، وما زلت أسأل كل الناس حولي: لماذا لم يفتحوا البوابة؟ لماذا أغلقوا علينا الممر؟ لماذا سمحوا لنا من البداية بالحضور إن كانت نيتهم منعنا من الدخول؟ هل من المعقول أن أقول لك: تعال، فتأتي، ثم أقول لك: ارجع، فتجد باب العودة مغلقا؟

أخوكِ الوحيد، وابنك الأول.

٨ فبراير ٢٠١٥.



(١)

في ٥ يونيو ١٩٦٧ قُتل العيال، وضاعت الأرض.



(٢)

في ٢٠ فبراير ٢٠٠٢ احترق قطار الصعيد، وتفحم الركاب.

(٣)

في ٣ فبراير ٢٠٠٦ غرقت عبارة السلام ٩٨، وابتلع البحر المسافرين، وفازت مصر ببطولة أمم أفريقيا.

(٤)

في ١ فبراير ٢٠١٢ فاز المصري ببورسعيد، وخسر المصريون.



(٥)

في ٨ فبراير ٢٠١٥ انقلبت الآية، وكان الحشر قبل الموت لا بعده.

حُشر الأولاد في الممر، فماتوا بسهولة.




الأوراق التي رماها
الساعي
لم تكن فارغة،
وإنما بدت شفافة
لأنها كُتبت بالعرق..

(١)

الواحدة بعد منتصف الليل،

ماذا تعرف عن طعم الجوع؟

الثلاجة فارغة، المطاعم ليست مغلقة، وهذا هو ما يوجعني. إغلاقها كان سيعطي لعقلي مبررا بأننا لن نأكل اليوم، فيَفهم بطني أنه «كان على عيني»، وليس من «قُصر دِيلي».

لكن المطاعم مفتوحة على مصاريعها، وأنا مغلق على مصرعي، أراقب الساعة التي تذكرني كل دقة منها بدقة في بطني، يقول لي: «افتح، أريد أن آكل»، ويشكوني إلى بقية جسمي، فيتضامنون معه بكل فدائية، وأقرر أن أعاقبهم جميعا وأغلق النور، لكنني في الحقيقة أعاقب نفسي لأنني أخاف أكثر منهم، من الظلام.

الجنيهات لا تكفي، أو تكفي لكنها ستكون على حساب شيء آخر مهم، لا أدري ما هو، لكن هناك دوما ما هو أهم

من الطعام. في جدول الأولويات يأتي الطعام آخِرا؛ أولا: لأنه مكلف، وثانيا: لأنه لنفسي، وليس إيجارا سأدفعه إلى صاحب البيت ولا قسطا إلى صاحب الدكان، سيتحمل بطني رغم أنفي، وليأكل في نفسه، لكن الآخرين لن يتحملوا التأخير ساعة.

المُر، والبديهي، أن في كل عمارةٍ لا بد من شاب مغترب يسكن منفردا أو شبه منفرد، وفي الغالب يكون مثلي، على باب الله، وفي كل عمارة لا بد من ألف شقة يطبخون كأنهم حاصلون على «نوبل» في الطعام، وفي كل عمارةٍ شقة تتصاعد منها رائحة تخترق النفوخ، وتعشش في الرئتين كأنها أقسمت يمينا بالله لن تغادر حتى أغلق الأبواب والشبابيك والأنوار وأسد ثقب الأوزون، ثم بعد ذلك كله، أجدها عالقة في أنفي.

أشعر أحيانا أننا لسنا في بناية، وهذه ليست شقق، وهذا ليس طرق أبواب وصياح أطفال، وإنما نحن مجرد أداة، مجرد بهارات، في حلة ملوخية كبيرة، عميقة، وكل هذه الأصوات هي «الطشة» بطريقة أو بأخرى، وهذه الحلة لا تنتهي البتة، وصوت الطشة لا يختفي أبدا، هو باقٍ ومستمرٍ إلى الأبد، أو إلى أن أشعر بالشبع يومًا، فأصعد إلى شقتي كأي إنسان طبيعي، لا يتخيل كل شيءٍ مطبوخا.

المهم، يا حضرة البطن المبجل، دعني أنام، وافهم أنّ لديَّ عملاً في الصباح، لا بد منه، لا لنأكل للأسف، وإنما لنعيش على الفتات، فحظك يا صديقي أنك معي وأنني معك، لا حيلة لأي منا إلا تحمل الآخر، وأعلم ما يدور بداخلك، بل وأسمعه، وأشعر بك، تقول: يا رب! ألم يكن هناك غير هذا البائس لتضعني عنده؟ أنا كبطنٍ، أعرف بطونا، تُرى من تحت ملابس صاحبها، وكل رداءٍ فوقها يفضحها، يصف ويشفّ، ونقول عنهم في مجتمع البطون: كِرش، ويصير لقبه بيننا: «ابن عز»، وننظر إلى كل واحدٍ فيهم، ولا نحسده لا سمح الله، وإنما نغبطه أن على جنبيه جيبين يدفئانه.

أشعر بكل ما تقوله يا بطني، لكن شكواك مرفوضة، واعتراضك غير مقبول، أعذرك كلما غضبتَ، وأتحملك كلما عاقبتني بقلة النوم وكثرة السهر، لكنني -واللهُ يشهد- لا أريد أن يدخلك إلا الحلال، وترضيني لقمة جافة وتكفيني كسرة خبز، بدلا من رطلِ عسلٍ مغشوش.

الدنيا قاسية يا سيدي، أجري فتسبقني، أسبقها فتأكل عليَّ أجري، أجلس فيقرصني جيبي، أقوم فتقرصني يا بطني، وأنا أضعف من أن أتحمل كل هذا الوجع، وأكرم من أن أتحمل عيون الناس، فنَصيبك إنسانٌ فارغ الجيبين مثلي، شاب في

عشرينيات عمره، لم يعرف من المطاعم إلا البقايا المقدمة إليه.

ونصيبك أن ذلك الطالب يعمل طوال اليوم: فترةً أولى طالبا، وفترة ثانية باحثا عن وظيفة، وفترةً ثالثةً غاسلَ صحون.



(٢)

هل يكون الشتاءُ شتاءً بدون صينية عليها جيش من محشي الكرنب؟ هل يكون الشتاء جميلا إلا بهذه المدفئة الطبيعية؟ هل تستطيع قضاء أسبوعٍ من دون حلة محشي؟ كلا؟ أبدا؟ كنتُ أعرف الجوابَ مسبقا، إذَن تعالَ واشترِ مني.. تلاتة بعشرين، تلاتة بعشرين، تلاتة بعشرين.

ثلاثة بعشرين، بألف، بالدنيا كلها، هم التركة الثقيلة التي تركها المرحوم منذ غادرني فجأة، بلا إذن ولا موعد، في يومٍ ككل يوم، أعد له فيه إفطاره سريعا، وأصحبه حتى الباب، وأدعو له بسعة الرزق وأولاد الحلال، ثم ينصرف، ثم يعود، عدا ذلك اليوم الذي انصرف فيه، ولم يعد، ولم يرجع لي منه غير طيفه الهادئ، وابتسامته الوادعة، ونظراته المودعة، وخبر كئيب، و ثلاث بنات.

منذ متى؟ منذ سبع سنوات، وعشرة أشهر، وخمسة وعشرين يوما، وأنا هنا، من اليوم التالي لجنازته، افترشتُ الأرضَ في السوق، وجلستُ أنادي على الخضار، قالوا: اتجننت، قالوا:

اللي اختشوا ماتوا، قالوا: قليلة الأصل.

لكن لا أحد يعرف الحكاية غيري، ولا يعلم بالأحوال إلا الله، مات الرجل فوجدت عزاءه في ألا يحتاج البيتُ بغيابه إلى شيء، هل كان ليرتاح في قبره إن أقمتُ له عزاءً أربعين يوما ثم مددتُ يدي للناس؟ وحينها سيقولون: اتجننت، ويقولون: اللي اختشوا ماتوا، ويقولون: قليلة الأصل.

ثلاث بنات، زهرات في عمر الورد، يكبرن في اليوم شهرا، وفي الشهر عاما، يزددن جمالا وبهاءً ونباهةً، وتصعب عليّ تربيتهنّ كلما فتحت الدنيا عيونهم أكثر، لكن الله يكحلها لهن بالصواب، يربيهن بكيفية يعلمها وحده، وكلما أردتُّ أن أعطي لواحدةٍ منهن درسا وأنا فيه قليلة الحيلة، معلمة معيَّنة عنوةً، وهي في الأصل لا تعرف كيف تتصرف، أسجد في الفجر، وأقول: يا رب، فتأتيني الفتاة في الصباح تسمعه لي غيبا عن ظهر قلب.

من يستطيع أن يعيش بدون المحشي؟

كل هؤلاء لا يستطيعون، كل المتزاحمين عليه بين يديّ يصدقونني، وأنا أكذب نفسي، لأن معطي الشيء لا يعني أنه مالكه، وأنا، الجالسة خلف هذه الكومة الكبيرة من الكرنب، لا أعد المحشي في الشهر إلا مرة.

وكيف ذلك؟ ببساطة، حين تعمل في مخبز يبيع الحلوى، هل ستأكل كل يومٍ من الحلوى؟ لا، لأنك الواقف خلف هذا الزجاج هناك، تحبُّ أن تأخذ راتبك آخر كل شهرٍ جنيهات لا كنافة، وأنا كذلك، منذ نحو ثماني سنوات وأنا أبيع للناس ما يزرعونه من كرنب، وأحصد أنا المال الذي يسد الرمق ويبل الريق، الضروري أكثر من المدفأة الطبيعية، ومن الألوف المؤلفة من الجنود المغلفة، ومن أصابع المحشي. وهل الفكرة في سعره؟ هو أرخص بكثير من الكثير، لكن الفكرة تكمن في أن تكون عيوننا ممتلئة.

الأسود؟ ليعلم الناظر إلى هنا، أن لكل سيدةٍ هنا، تفترش الأرض من الفجر إلى العصر، وترعى عيالها من العصر إلى الفجر، حكايةً، هي بالتأكيد أكبر، من حكاية المارّ بهن مع الكرنب الذي سيشتريه منهن.

تلاتة بعشرين، تلاتة بعشرين، تلاتة بعشرين،

لأن ثلاثة بعشرين، ثلاثة بألف، ثلاثة بالدنيا وما فيها.



(٣)

سيدي العزيز، عساك بخير،

كانت أمي، رحمها الله، تقول لي دائما إنني «حمَّال أسية» أو «شيال هموم»، ولم أكن أعرف معنى للكلمة أكثر من أنها مجاز، أنها تعني حمل عقلي لتفكير أثقل من رأسي، وحمل قلبي لحزن أوسع من صدري، وكنت أسمع الناس يتحدثون عن آخرين انكسروا من «شيل» الهموم.

الحقيقة أسوأ بكثير من المجاز، وذلك ليس من باب الفلسفة، كانت مادة لا أحبها قبل تَركي للمدرسة مرغما، لأن المدارس جميلة، لكنها لن تعطيني ثمن علاج أمي، ولن تمنحني راتبا آخر الشهر.

كنا نقول إن الحقيقة أسوأ من المجاز، وذلك لأنني أعمل «شَيَّالا»، أحمل كل شيء يثقل على الإنسان حمله، أحمل ما هو مخصص لرافعات الأثاث أن تحمله إلى الأدوار العليا، حين يريد أحدهم تأثيث شقته، وأحمل ما هو مخصص

للسيارات الصغيرة حمله، حين يعود الرجل من سفره ومعه ألف حقيبة بها ألف شيء، وأحمل ما هو مخصص لآلات البناء حمله، حين يريد المقاول نقل ألف طوبةٍ إلى الدور الخامس، وأحمل ما هو مخصص لاثنين حمله، حين أضع شوالين من الدقيق على كتفي لأنقلهم إلى المخزن، وأحمل ما هو مخصص لأي أحدٍ غير الإنسان الطبيعي حمله، حين يريد إنسانٌ ما، شيئا، يصعب على أمثالي فهمه.

والناس، يا سيدي، يتخيلون ذلك الشيّال مخلوقا مولودا بوظيفته تلك، منحه الله بعض الصفات ليتكيف مع ثقل الحمولة، مثلما يمنح أي حيوانٍ بري جلدا وعظاما وأنيابا وشعرا أو فروا، كما يمنح للسمك خياشيم وذيولا، ليتكيفوا جميعا حسب بيئاتهم وما تقتضيها، ويشعرون في نظرتهم إليه بأنه كائنٌ جديد، يبتسمون عندما يرونه، ويشكرون الله على توفير هذه الكائنات في الأرض.

هل ألومهم؟ أبدا، لو كفوا عن مناداتي سأموت جوعا، وأنا لا أحب الموت إلا شبعان، لكنني سأموت لسببٍ آخر غير الجوع، كل أصدقائي في الشغلانة ماتوا لأسبابٍ متشابهة، أحدُهم لم يمت حين دُهس بسيارة، رقد بالعناية المركزة ثلاثة أشهر ثم قام كالحمار يحمل أثقالا من جديد، لكنه مات

في الليلة التي كُسرت فيها قدمُه. تخيل؟ لا تتخيل؟ يا سيدي، وهل تموت الأزهار إلا حين تُكسر سيقانها؟

لي صديقٌ آخر، صديقٌ في المهنة لكنه كان يكبرني بثلاثين عاما، يأتي معنا للمهمات المقدسة، لحمل الأشياء الثقيلة التي لا نراها، تتوقع أن أخبرك أن السبب هو ثمنها الذي يعادل أضعاف أجورنا مجتمعة، هذا سبب، لكن سببا آخر يقول إننا لا نرى الأشياء الثمينة تلك؛ لأننا دائما نحملها فوق ظهورنا، فإذا استدرنا لرؤيتها سقطنا.

ذلك الشيخ الذي لم تعد لديه القدرة على الحمل، ونحمل عنه، لكننا نجعله يمثل أنه يحمل معنا ليتقاضى أجرا يأكل به وجبةً في اليوم، لم يمت لكبَر عمره، ولا لسقوطه أثناء حمله برَّادا، ولا لأن الحمولة كانت ثقيلة، وإنما مات بعد أسبوع من إقالته، حين رآه الأُسطى غير صالحٍ للعمل، كأن انحناء ظَهره كان سببه للحياة، ثم حين استقام، مات.

صديقٌ أخير، لم يمت بعد، لكنه يعاني جدا من التعرّق، يتأفف من تنفسه غير المنتظم، يشكو من أشياء غير منضبطة في قامته، من أوجاع أسفل ظهره، من مشكلة في عنقه، من صراخ في ركبتيه، من رعشةٍ في يديه، مِن تقلص قدرته على حمل ملعقةٍ في غرفته، بعد عودته من حمل أثقال الناس، مِن أنه

يريد يومًا، أن يأكل دون أن ينحني، من أنه يحتاج بشدة، إلى أن يستقيم عموده الفقري، من أنه يريد جدا، أن يرى السماء.



(٤)

أبنائي الحلوين،

من أمكم الحنون القاسية، المقصرة بحقكم، تحية طيبة وبعد،

أعتذر لكم عن غيابي إلى هذ الحد، عن عدم وجودي لأوقظكم كل صباح، عن الإفطار الذي لا تأكلونه قبل الخروج من البيت، عن أحضان العودة من المدرسة التي لا تفتح لكم، عن رائحة الطعام الدافئ على الغداء التي لا تشمونها، عن نوم النهار في سريري الذي لا تذوقونه، عن العَشاء أمام المسلسل الذي لا تجدونه، عن الضحك أثناء السمر الذي لا تضحكونه، عن تقبيلي جبهاتكم لحظة غوصكم في النوم، الذي لا تحسونه، عن كل شيء لا تعرفونه، عن عدم وجودي لأوقظكم كل صباح.

طمئنوني عليكم، كيف حال أختكم الصغيرة؟ لا تتسببوا بضيقها ولو لحظة، وكيف حال البيت وتنظيف البيت؟ اتفقنا

ألا تُهملوه، وأنتم ما شاء الله زين الشباب وأجمل الولاد، وما أخبار تعليماتي لكم؟ هل تنفذونها؟ إذا دق عليكم الباب مثلا، ولم يكن الطارق أنا، اتفقنا ماذا نفعل؟ أنا غير قلقة عليكم، اتفقنا؟

أشعر وأنا أكتب بخدر في أناملي، كأنها استقالت من مهامها إلى الأبد، اعتراضا على سوء المعاملة، ومطالبَة بالترقية، وتحديد المسمى الوظيفي، هي مخصصة لتذويق الأشياء، للإمساك بشيء ما، لحمل شيء ما، لضم أحدٍ ما، للربت على كتفٍ ما، لمسح دمعٍ ما، فمن أين أتت كل هذه الوظائف التي لا تتعلق إلا بتحويل كل شيء قذرٍ إلى شيءٍ يلمع؟

أجل، أنا أعمل منظفةً بالبيوت، أي بيت، هل لديك بيت؟ شقة؟ غرفة؟ لا تقوى على تنظيفه؟ سأجعله لك قصرا. هل تملكين فيلّا؟ صالة؟ مطبخا؟ لا تتعبي نفسك، دعيه لي، سأجعل المكان المراد صافيا كالسماء وعذبا كالماء وجميلا كالراحة. هذه مهمتي، يا بيه، تلك وظيفتي، يا هانم، كل البيوت، كلها، عدا بيتي.

أخبركم بسر؟ اشتقتُ إلى رؤية الكركبة، إلى رؤية الدنيا كلها مقلوبة رأسا على عقب، وأجلس أمامها، واضعةً رِجلا

على رجل، أشرب قهوتي، وأتنفس نفسا طويلا عميقا، وأسرح بخيالي بعيدا بعيدا، دون أن أشعر ولو للحظةٍ أن كل هذه الكركبة تعني لي شيئا، أو أنني موكلة بها، بعد إعلان الطوارئ واستدعاء كل قوايَ الضعيفة.

اشتقتُ إلى العيال، إلى الضحك معهم كل ليلة، إلى المشاجرات التي لا تنتهي، إلى صراخي: هسيبلكم البيت وأمشي، ولا أمشي، إلى «بس يا واد»، «بس يا بنت»، «معلش يا حبيبي»، «حقك عليا يا حبيبتي»، «العبوا مع بعض»، «تاني.. هسيبلكم البيت وأمشي»، ومشيت.

لم يكن بإرادتي أن أتأخر، أن تروني مثل الجمعة، يوما في الأسبوع، أن أغيب لأعمل بالبيوت ولا أعمل ببيتي، أن أكتم كل هذا البكاء بداخلي وحدي، لأن الأفندي لا يحب أن يراني نكدية، فأمسح دموعي دائما بابتسامة ساذجة، سرعان ما تسيل كالكُحل الرخيص أول ما أدخل غرفتي، وأجهش بالبكاء.

ثم ماذا لو جلستُ كبقية الأمهات بجوار عيالهن؟ وحين تجوعون ماذا أفعل؟ أطبخ لكم الدفء والحنان؟

أحبابي الصغار، الكبار في عيني دائما، أحبابي الذين يكبرون كل يوم، الصغيرين بالنسبة لي دائما، سامحوني، واغفروا لي،

ولا تسامحوا الدهر ولا تغفروا لزمنٍ يموت فيها الحب جوعا، أو يكون على المرء الاختيار بين الشبع أو الدفء.

أمكم أنتم،

(والدادة، في أقوال أخرى).



(٥)

طلابي الأعزاء،

هذه رسالة ستبقى حبيسة دفتري؛ أبث شكواي لأوراقي، وأدفن كلماتي بها حية، وأودعها وهي لم تولد بعد، وأجهضها في «تُواليت» بشريةٍ ساذجة، لا تحفظ للبشر أقدراهم، ولا أقول للملائكة؛ لأن أول البشر حين عُلم الأسماء كلها، كانت الملائكة عاجزةً عن العلم بها.

«مدرس»؛ كأن الكلمة مثيرة للشفقة، مثيرة للضحك، مدعاة للرحمة، ومدعاة للعنة، تقول للناس مهنتك، فيبجلونك بألسنتهم وأياديهم، ويهينونك في عقولهم. أول ما يرونك يتخيلون الحد الأدنى للأجور، يضحكون في سرهم، ثم يعودون بنوعٍ من التأدب والتركيز، يضربون عدد أيام الشهر في عدد الوجباتٍ باليوم في عدد أفراد أسرتك في إيجار البيت في الفواتير والضرائب، في سرهم، ثم يقولون لك الناتج علانيةً: «أعانك الله يا أستاذ».

البنطال المكوي لكنه مهلهل، القميص الثابت مهما تغير كل شيء حوله، البلوفر الذي فوق القميص، العصا الرفيعة الطويلة، النظارة الساقطة من العينين إلى الأنف، الدوران ناحية السبورة للكتابة بطبشور يصدر صوتًا مزعجا يصك الأسنان، ثم الدوران بدرجة ٣٦٠ كالمجنون، في موجة ضحك متصاعدة من الطلاب، وهناك دائما طالبٌ تتعاطف معه، تراه خفيف الدم رغم أنك تراه في الوقت ذاته قليل الأدب، لكنه على كل حال ابن نكتة، ويجعل من المعلم الطيب مسخرةً أمام الصف، ثم يجري وراءه الأستاذ وأنت بالتأكيد تنتظر اللحظة التي سيقع فيها الأستاذ على وجهه، كل هذا وأكثر، في شاشةٍ يقف خلفها وأمامها تلاميذ سابقون، تجعل من المدرس أيقونة للقهقهة.

وأنت مع إنكارك لما تراه، ترفض أن تنكره، ترى في إهانة هذا الرمز قصاصا لك من المنظومة الكبرى، تُشعرك السخرية منه بالراحة لأن حقك قد أتى، ومَن هذا الذي خُلق ليعلمني الأدب؟ ومن ذاك الذي سيربيني غير أبي؟ هل جُنَّ جنون الدولة لتنشئ وزارةً للتربية والتعليم؟ هل جن جنون الوزارة لتجعل دخول المدارس إجباريا؟ هل جُنت المدارس لتزعم أنها ستجعل منا أناسا آخرين؟ هل جُن الناس ليظنوا بأنَّ المدرس يستحق كل هذا التبجيل؟

إن كنتم تفعلون كل ذلك لتنتشلوننا من الطبقة الكادحة إلى الطبقة المفلحة، فإن المعلم، وسيلتكم لانتشالنا، هو نفسه من الطبقة الكادحة، راتبه لا يكفي لإيجار غرفةٍ بحمام، وحوافزه لا تكفي لتحفيز طالبٍ على كتابة حرف الباء خمس مرات، ووضعه في المجتمع ينتهي عند إلقاء السلام ورد السلام، ومن خلفه ألف كلامٍ يقال، وألف مصمصة شفاه تتم، شفقةً بحال المسكين الذي يقف بطابور الراتب وقفةً لا تستحق وقوفه يومًا واحدا بطابور التلاميذ في حوش المدرسة، وكان من الأكرم له أن يتسلم مرتبه على هيئة «بيض»، سيبدو أكثر من الجنيهات التي تتأرجح في جيبه لقلتها.

مُدرس، هو ذلك الشخص الذي تستطيعون وضعه في العلم بدلًا من النسر، في الوسط تماما، معلقا بين حمرة الخجل، وسواد الحال، بقلب ضبابٍ أبيض كثيف، يبدو فيه بارزا وحده، وعليه يُقاس أهل الطبقة شبه الفقيرة، شبه المتوسطة، ويبدو من حياته شبه طبقةٍ عليا، سلوكه «هاي كلاس»، ووظيفته في «كلاس» به سبعون شاربًا على مشارف النمو، ويُطلب منه تأديبهم جميعا وتعليمهم جميعا في آنٍ واحد، ولو طلبتَ من حلاقٍ أن يهذب شواربهم الضئيلة معًا لاستثقل الأمر وما قَبِل بذلك العدد.

والرجل في بيته يصور لأولاده المعلم على أنه خصمه، «المدرس اللي يقوللك نص كلمة هقطعله نص لسانه»، كأن الرجل نفسه لم يمر بالتعليم، وكأن وضعه الاجتماعي المرموق الذي يسمح له بقص ألسنة الناس من دون محاسبة، اكتسبه حين نزل من رحم أمه، ولم يسهم فيه معلمٌ صبر عليه، ولا معلمٌ أدّبه، ولا معلمٌ قال له ذات يومٍ: كن رجلا. فكان رجلا، لكنه أول ما أراد استعراض رجولته جربها في مَن علمه إياها.

مدرس؟ كلمة يخجل المرء منها إن سُئل عن مهنة والدِه، يسألونك فتجيبهم وأنت تبتسم، وتعلم أن كل الـ«ما شاء الله» التي يقولونها عند ذكر مهنة الوالد الكريم، كذبٌ، ولـ«ما شاء الله» في مصر استخدامات كثيرة، منها أن يخشى المرء الحسد، ومنها أن يكون المرء في وضعٍ لا يُحسَد عليه.

صديقي العزيز الذي بداخلي، قلبي الكبير في صدري الضيق، لم أكن أعرف وأنا أقرأ «كاد المعلم أن يكون رسولا»، أنني سأشعر بها ذات يومٍ من زاوية أخرى، فأجد أن المشترك بيننا وبين الرسل لم يكن الرسالة بقدر ما كان التعرض للأذى.

أبنائي المساكين، أهلا بكم في مجتمعٍ لا يُنزل الناس منازلهم، ولا يحفظ لابن آدم كرامته، ويرى المعلم أوضع الناس قدرا، لأن الأقدار مرتبطة عنده بالراتب لا بالمرتبة.

لا ألومكم أنتم على فساد النظرة، ولا سواد النظارة، وإنما أطلب منكم خلعها تماما، لتروا بوضوحٍ كيف يُنفق الرجلُ منا عمره فداءً للرسالة التي وُكل بها، ولا يأكل بها، وكيف يختار المهمة الأصعب في تاريخ الإنسانية، وكيف يختاركم أنتم على غيركم من البشر، وكان بإمكانه أن يعمل أي شيء، أفضل من «مدرس»، لكنه مهما عمِل فإنه يجعل الوظائف كلها على هامش التدريس، فيعمل بعد الظهر هنا، ويعمل بعد المغرب هناك، لكن طابور الصباح ثابت، ومكانه ممتلئ به، في حوش المدرسة، كل صباحٍ في تمام السابعة.

رسالةٌ لن تخرج للنور،

٥ أكتوبر.

الثانية ظهرا، بعد دوامٍ طويل.




رسائل لم يرها ساعي البريد،
ليس لأنه نسي نظارته الطبية،
وإنما لأن مرسلي الرسائل
كانوا غير مرئيين.

(١)

إلى السادة المارّة،

عساكم جميعا بخير، الذاهب إلى عمله متعجلا، والمتأخر عن محاضرته، والماشيء ببطء لأن قدميه لا تقويان على حمله، والمصطحب حبيبته إلى السينما، والعامل البسيط المنتظر حافلة المصنع، والمتسكع الذي لا يشغله شيء فقرر قضاء وقته في معاكسة الفتيات.

سأعرفكم بنفسي، أنا، بائعة المناديل التي على السلم الخشبي، بين الكوبري، وبين الأرض، في الزاوية التي تمرون عليها صعودا أو نزولا، على بسطة السلم تماما، أفترشها، وأمامي كرتونة أضع عليها علب المناديل الورقية، وأحيانا بجوارها أبيع المناديل المبللة، وأعرف أن هذه «كلينيكس»، وهذه «وايِبس».

أعرف أنني أقتحم عليكم خصوصيتكم، وأقول يا عالم اعرفوني، يا ناس، ألا يدفعكم الفضول لتعرفوا هذه الجالسة

مكانها منذ سنوات؟ رمسيس تحرك من مكانه وهي لم تزل مكانها، لم تتحرك.

أنا تلك التي أمامكم، ببساطة وبديهية..

لا أملك تعريفا أكثر من نفسي، من صورتي وهيئتي وجلستي، من «الله يسترك» لمن يشتري مني، و«الله يسهل لك» لمن ينصرف دون أن يراني، و«الله لا يسامحك» لمن يراني ويتعمد ضرب المناديل بقدمه، كأنه يطردني من أرض الله.

أنا تلك الجالسة، من السادسة صباحا إلى منتصف الليل، أجمع قوتَ يومي، لأن هناك رضيعا أتركه كل يومٍ مع ابنة الجيران، وصدري جاف لأنني ضعيفة كما ترى –سلامة نظرك–، ويجب عليّ شراء اللبن له، والحرامُ سهلٌ وكثير لكن الحمد لله على الحلال مهما قل.

أرجو منك سيدي، لا لا ليس المال، اشترِ إن شئت أو لا تشترِ، لكن كل ما أرجوه منك هو بعض الاحترام، بعض من «مروا كراما»، و«قالوا سلاما»، وأن تعفيني من نظراتك الثاقبة، من اعوجاج أنفك كأنك تمر بصندوق قمامة، من لسانك الحاد كأنه شيفرة حلاقة، من ضحكتك الساخرة

كأنني فصل مسرحية، من عينيك المشفقتين لكن بقرف، كشفقة الوزير على الفقير.

سيدي المحترم،

ابني الجميل الذي لا ينساني في طريقه كل يومٍ إلى الجامعة، وابنتي الحلوة التي تسألني إذا كنتُ محتاجة إلى أي شيء، في ذهابها وإيابها، وعم الحاجّ الطيب، الذي لا يحرمني من نُكاته كل صباحٍ وهو مارٌّ بي متوجها إلى العمل، وأضحك من همي، فيقول: اضحكي من قلبك يا أم حسن، وأضحك من قلبي، فينصرف كأنه أتم رسالته.

شكرا لكم، لأنني أشعر أن لي ابنًا وابنةً وأبا، وأشعر أنني كائن على قيد الحياة، لا شيء ميت على قارعة الطريق، شكرا لأنكم تميلون، تجلسون على ركبةٍ ونصف، قريبا مني، ولا تنظرون إليّ ككل الناس- من الأعلى، ولأن نصيبي من رؤيتكم الوجوه لا الأحذية.

وأحب أن أطمئنكم، وأمسح بالسَّكِينة على عيونكم القلقة، وأقول يا أسرتي الصغيرة، التي لا تعرف اسمي ولا أعرف أسماءهم، ولا يدور بيننا من الحديث إلا ما يفتح للشمس

بصباح الخير، ويأذن للقمر بمساء الخير؛ أقول لا تخافوا عليّ من برد الشتاء، ولا تطلبوا مني القيام وقت المطر، هذا موسمي، ولا بأس، أنا في قمة الرضا والله الحمد لله، حتى وإن كان كل هؤلاء المارة بالآلاف لا يتذكرونني إلا عندما تسيل أنوفهم.



(٢)

وردة يا أستاذ؟ وردة يا آنسة؟

سيدي الأستاذ، سيدتي الآنسة،

كيف حالكم؟ ربما لن تتذكروني، ولا تتوقعون أن أرسل إليكم هذه الرسالة، أولا اعذروني على خطي السيئ، وعلى أي خطإ إملائي، فأنا لم أدخل المدرسة، وكل ما أعرفه هي الكتابة بمعاناة، والقراءة بسهولة، تعلمتُهما هنا أيضا، في الشارع، لأن الفضول يملؤني تجاه هؤلاء الصغار مثلي، الذين يحملون حقائبهم على ظهورهم، ويقرؤون بسرعة البرق، ويحكي لي أصدقائي عن أصدقائهم، أنهم درسوا هذا كله في صفوفهم.

أنا ذلك الصغير، الأسمر بعينين بنيّتين، الذي لا يمد إليكم يديه حتى تقولوا: الله يحنن عليك، ولا يمد عليكم يديه، حتى تمدوا عليه أياديكم، ولا يمد لكم لسانه حتى تجرحوه بألسنتكم، كل ما يفعله هو: «وردة جميلة للآنسة الجميلة»،

«الورد يحب الورد»، «هات لها وردة ببلاش، ولو فتحت لك قلبها هات لي الحلاوة»، وردة يا هانم؟ ورد يا ورد؟

لا أطلب منكم شيئا ثقيلا،

فقط أطلب منكم أن تحترموني، أن تشتروا مني الورد لأن هناك ورودا تذبل مقابل كل جنيهٍ تحتفظون به لجيوبكم، أو لا تشتروا، لكن ابتسموا بوجهي، وقولوا لي شيئا جميلا، قولوا: ورد شايل ورد، صباح الفل على بياع الفل، قولوا لي شيئا يؤكد لي أنني غير شفاف، وأنني أُرى، وأن دمي ليس ثقيلا، وأن إلحاحي أحيانا وإن أزعجكم فإنه لا يستدعي أبدا ركلي ولا صفعي.

أود، حين ترونني نائما مثلا، ألا ترتطم بي أقدامكم –بالصدفة–، أعلم أن الشارع ليس مكانا للنوم، ولا تعلمون أن الشارع هو الإجبار الوحيد، وأنني لا أفعل ذلك من قبيل التجربة، لأنعم بالأحلام الهادئة تحت الكباري، ولا بالوسائد المريحة فوق الأرصفة، وإنما لأنني وجدت نفسي هنا، فشعرتُ –رغم أنفي– أن شارعكم بيتي.

ورد يا آنسة؟

أحيانا أريد أن أقول لكم اشتروا الورد واقتلوه، ارموه في النيل، دوسوه بأقدامكم، ألقوه بأقرب صفيحة قمامة، لا

يهمني الورد، ما يهمني هو ثمنه الذي سيجعلني اليوم أنام غير جوعان.

ورد يا حبايب؟

أمازحكم، أريد أن أستعرض خفة دمي عليكم، أن تكون الأمور بينكما معطلة، فأحركها، أن تنظر لك خجولةً من الموقف، تقول لي: حبايب مين يابني، وأنا أعرف أنني بعد ستة أشهر سأقابلكما قريبا من هنا، في فلوكة في النيل، وحولكما جمعٌ غفير من العائلتين والأصدقاء، وتتذكرون الموقف، وأكون جواركما، ولن تتذكراني، حينها سأرمي عليكم نصف الورد، مشاركةً في الفرح.

زعلتها؟ خد لها ورد.

أقول ذلك لأفك شيفرة وجهها المنغلق، ولأنني يا صديقي، وإن كنتُ أصغر منك بكثير، لكن مرَّ عليّ هنا جميع الأشكال والألوان، وأقول لك إنهن جميعا من الصنف نفسه، الذي يحتاج إلى وردةٍ واحدةٍ مني، تشتريها، وتهديها لها، فيبدأ العتاب، ويهون عليها أن ترمي الوردَ، ويعجبها شكله ولونه، فترضى بالتدريج، وليلتك سعيدة يا أستاذ، أنقذتك بوردة.

ورد يا هانم؟ ورد يا بيه؟

اسألني ما اسمك، سأجيبك بلهفة، لأنني لا أريد أن أنسى اسمي من قلة ندائي به، سأكلمك بطريقةٍ تضحكك، لأرى الابتسامةَ على وجهك مفتاحًا لمحفظة جيبك، مد يدك، أعطني ما تقدر عليه، أو خذ الوردة بلا مقابل حتى، لكن لا تنسَ أن تصافحني، عانقني إلم يكن في ذلك ثقلٌ عليك، قل لي إنني جميل، مد يدك إلى رأسي وامسح شعري، حينها ستكون قطفتَ الورد، دون أن تترك في يدي شوكَه.



(٣)

ابني الكريم،

كيف حالك؟ عساك بخير، لا أعرف هل ستعرفني من رسالتي أم لا، حاول أن تخمن، أنا الرجل الذي تراه كل يومٍ، يجلس على كرسي قصير، وأمامه علبة خشبية، وبعض العلبِ الصغيرة، وغارقٌ في سوادٍ كبير، كأنه يأتي إلى مكانه كل صباحٍ سباحةً في بحرٍ من الورنيش، وتتذكرني كلما نظرت إلى فردتي حذائك، الآن هل عرفتني؟

أجل، أنا «عمّ شريف»..

أجلس هنا كل يومٍ، منذ خمسين سنة، بعد وفاة والدي رحمه الله بيومين، فكرتُ، قلت إنني لا أملك شيئا، وكنتُ حينها في سنتي الثانية بآداب القاهرة، نظرتُ إلى الميراث فلم يكن أكثر من راتب أبي لشهرٍ واحد، ولمعت برأسي فكرة التلميع، لا تحتاج إلى رأس مال، ولا إلى مهارات كبيرة، تحتاج فقط إلى إنسانٍ لا يخجل من أكل العيش الحلال، ويستطيع خلال أيامٍ

قليلةٍ أن يتقن فنونها وأصولها، ويقدر مع الزمن أن يعرف الجلود، ويميزها.

ورنيش يافندم؟ ورنيش يا مودمازيل؟

وكان الرجل يأتي فيضع حذاءه أمامي، ويجلس إلى كرسي بجواري، ويحكي ونتناقش، وكنا أصدقاء؛ مهنتي هي الصداقة، ومسح الأحذية أمر جانبي.

فأقول يا أستاذ، وأنت في مثل عمري قبل خمسين عاما، حين كانوا يمرون من هنا ليلمعوا أحذيتهم، كانوا يخلعونها، أقول لهم: يا سيدي دعها بقدمك، ستكون أيسر عليّ، لكنه كان يُقسم مائة يمين، أنها ستكون آخر مرة يمرّ علي فيها، تخيل مرةً، أقسم عليّ، وكان أستاذا جامعيا، أن يلمع لي حذائي، وقال لي اجلس، وبدلنا الأماكن، وأقسم عليَّ ألا أخلع حذائي وإنما سيلمعه وهو في قدمي، قال إنه أراد أن يرد جميلَ يومٍ واحدٍ من السنين التي يعدها جمائل لي عليه.

صديقي العزيز، حتى وإن كان الحذاء خارج قدمك شاقًّا عليّ، أو يستغرق وقتا أطول في مسحه، لكنني سأكون ممتنا للغاية، إن تصرفتَ بلطفٍ أكثر، وخلعته لي، ولم تعتبرني «جزامةً» لا مجرد «ماسح أحذية».

سيدي الكريم،

وأنا هنا، بالأسفل، بينما تمر أنت بالأعلى، ورأسي حذاء حذائك، لا يعني هذا اختلافا بيننا في النوع أو العِرق أو الفضيلة، كلنا بشر، وأنا إنسان وأنت -بإذن الله- إنسان، فلا داعي لأن تنظر إليَّ كأنني آلة، تضع عليها حذاءك وتنصرف، ولا أقول لك ادفع كذا أو كذا، لكن لا تشعرني بأن مهنتي تستوجب العقاب، ويكفيها الفتات من كرمك، وكرم أخلاقك.

أنا هنا، ربما لا تعرف شيئا عني، لا تعرف اسمي ولا عمري، منذ أول مرةٍ مشيتَ بها في هذا الشارع وأنت رأيتني صدفة، وكل مرةٍ تمر كأنك لم تلحظ وجودي، ثم حين لاحظته تخيلتني أبا الهول، جالسا هنا منذ آلاف السنين، يمسح للفراعنة أحذيتهم.

كل ما أريده منك هو أن تصافحني في المرات القادمة بيدك، لا بقدميك.



(٤)

روبابيكيا!

سيدي المستمع، حضر المواطن،

أنا الآن أمر من تحت بيتك، وفي حلقي تتردد الكلمة ذاتها، التي صارت تخرج تلقائيا منذ عشرين سنة، حتى وأنا نائم، أستيقظ وأجدني كنت أقول «روبابيكيا»، فأبتسم بمرارة، وأمسح على صدري بركعتين في الصباح، وأتوكل على الله.

خلف ظهري، أجر عربةً يئست الحمير من شدّها، جميع الحمير التي وظفتُها هنا استقالت، لم يطيقوا الحمل، أحدهم قالت لي عيناه: اشترِ حمارا من الصين بلا روحٍ، لا يتعب، أما أنا، فمثلي مثلك، ليَ رئتان أفقدهما مع كل مطلعٍ ومنزل، وأنا لا أريد لأولادي الحياة في يُتمٍ مبكر. والآخر قالٍ لي: هذه عربتك، وهذا عملك، ويبقى حمار اللي يشتغل معاك تاني. والثالث، رحمه الله.

روبابيكيا..

ومَن الذي لا يملك في بيته شيئا، أي شيء، لا يصلح أن يكون خردة؟ لا بد من تلفازٍ قديم، راديو من الحرب العالمية الثانية، أثاث من القرن الخامس عشر، أدوات مطبخ من قبل أن يكتشف الإنسان النار، طن من الحديد الخام كانَ مركونا فوق السطح لسببٍ غير معلوم ولأجل غير مسمى، أخشاب أتت من حيث لا نعرف، أشياء سكنت البيت قبلنا.

روبابيكيا..

كل الأشياء القديمة مهنتي، كل المستعمَل يتمنى ركوب عربتي، يشعرون بأن الإسعاف وصلت أخيرا، وأن طبيب العظام سيعيدهم إلى الحياة مرةً أخرى بعد صبر طويل، أو سيحيلهم إلى المقابر بعد مراسم دفنٍ تليق بهم، أو قد يجد لبعض الأشياء التي تعاني من الوحدة، أشياء أخرى، تصلح لأن تكون معها، لأن بينهما توافقا ما، يعلمه الله، ويعلمه حضرة الخردجي.

ماذا تعرف عن جر العربات؟ عن حمل الأشياء خلفك كأنهم عيالك؟ عن ثقل الحمولة التي لا تقوى على جرها الأحصنة؟ عن الإنسان في عملية «الحيونة»؟

اسأل ظهري عن المقابل الذي أدفعه، واسأل عظامي عن

عودي المحنيّ، واسأل الأرض على وزن العربة، واسأل حلقي عن أحباله الصوتية، واسأل الله لك العافية، وقل الحمد لله الذي عافانا وفضلنا على كثير من عباده تفضيلا.

روبابيكيا..

وكل الناس «روبابيكيا» بطريقةٍ ما، في وقتٍ معين سيأتي دورهم على العربة، سيأتي مجموعةٌ من الخردجية يضعون قطعة الخردة في صندوق خشبي، سيحكمون إغلاقه الصندوق عليه، بعد أن يغسلوه من الأدران العالقة به من سوء استعماله، سيدفعون المقابل لأخذه، حكما وأمثالا ومصمصة شفاه، وألف رحمة ونور عليه.

ثم بالتدريج، لن يلتفتوا إلى أنفسهم، لن يفكروا في اليوم الذي قد يتحولون فيه إلى تلك القطعة التي انتهت مهمتها، سيظنون أنفسهم فوق العمر الافتراضي، ثم من دون تركيز، وعلى غفلة، سيُحال إلى الصندوق.

روبابيكيا..

أرأيتَ ماذا علمتني المهنة على مر السنين؟ أرأيتَ أن المستحق للشفقة ليس أنا حين تراني أجر العربة خلفي؟ وإنما المسكين الحقيقي أنت، لأنك لم تجرب ما جربته، ولم تعانِ مما عانيته، فلم تعرف المعنى الذي عنَيتُه.

أرأيتَ كيف يصنع الزمان منا حكماء وأدباء؟ لم أتخيل في يومٍ أن أكون شاعرا ولا أديبا، لكنه اصطفاء الله لعباده الصالحين المصلحين، يثقل عليهم الحمل لأنه سيعوضهم بخفةٍ في اللسان، وهو يعلم ذلك، ثم هم يعلمون ذلك.

روبابيكيا..

ويا بخت مَن عرف ماذا يجر وراءه!



(٥)

عزيزي المواطن،

تحية طيبة وبعد،

هذه رسالتي إليك، على ظهر ورق كرتون ملقى بالقمامة، أكتبها بقلم كُحلٍ يبدو أنه كان لسيدة جميلة، لأحدثك قليلا، بما أننا نتقابل كلّ يومٍ وجها لوجه، ولا نتحدث على الإطلاق، فكتبتُ إليك هذه لعلّك تجد في بعض فراغك مساحةً لتقرأها بدقيقةٍ واحدة.

اللون البرتقالي، الشبح الذي يسير بالشارع كأنه لا يُرى، يتخلل المارة، ويعبر من بين السيارات، ويصعد فوق الكوبري، وينزل تحت الجسر، وفي يده مقشّته، ينظف كل مكان، ويمسح ما بين السطور، ويرتب الأشياء فيضع النقاط على الحروف، ولو كان في ساعات دوامِه نصف ساعةٍ فائضة، ممتلئة بالفراغ، لنقلوه برافعةٍ إلى السماء لينظف السحاب

ويقشّ الغلاف الجوي، ويسد ثقب الأوزون لشكوكٍ تقول إنه يصنع تيارا في المجرة ويأتي من خلاله الغبار.

أنا ذلك الرجل، الذي تظنه مخلوقا آخر، أنزله الله من رحم أمه بمقشة، وحصّن رئتيه من ذرات التراب والروائح القذرة، وحصّن يديه من قطع الزجاج المكسور وصفائح المعلبات، وحصّن قدميه من الوحل والطين وماء الصرف.

أهلا بك، أعرفك بنفسي، وأكشف لك عن سر خطير، قد يزعج حضرتك، وقد يثير بلبلةً في أوساط الطبقات العليا ونخبة المثقفين، وقد تتخذ السلطات إجراءاتٍ عاجلة وتفتح تحقيقا في الحال، وقد تتحرك النيابة العامة بشكل عاجل، على غير العادة، وتحيلني إلى محكمة الجنايات، وقد تحكم «الأمور المستعجلة» بسرعةٍ غير طبيعية، ويكون الحكم بالإعدام، وتختلف الدوائر التنفيذية، هل يكون رميا بالرصاص أم بحبل المشنقة، فيتفقون أخيرا على الطريقتين معا، جماعة سيرمونني بالرصاص، في الوقت نفسه الذي ستدفع فيها جماعةٌ أخرى الطبلية من تحت قدمي، فأموت بالطريقتين، ويعلقون جثتي في مدخل القاهرة القديمة، ويثور الزبّالون، ويرفعون صوري، فيقضون عليهم، ويمنعون تداول الخبر، ويصير اسمي تهمةً فلا يجرؤ إنسانٌ على الهمس به، ويُحظر تسميته في السجل المدني لأي مولود جديد.

ويقضون بمنع أي عامل نظافةٍ من القراءة والكتابة، ومن يقرأ منهم سيكون عرضةً للإعدام إن كتب رسالة، يخبر فيها أحد البشر العاديين بسر خطير، يقول فيه: «أنا أيضا.. إنسان».

ولذا عزيزي، اقرأ هذا السر، وأحرق الورقة فورا، وأرجو منك وكلي أمل، ألا أجدها وأنا أعمل، باليوم التالي، في صندوق القمامة.





الرسائل التي بدت باهتةً

في يد الساعي

ستراها بوضوحٍ إن اقتربتَ قليلا،

فهي مكتوبة بالرصاص؛

لأن مرسليها يخافون من أي شيء

«جاف».

(١)

إلى المجتمع القويم في المدينة الفاضلة،

تحية طيبة وبعد،

أحدثكم من الطرف الآخر، من أسفل عيونكم بالضبط، من حيث تنظرون إليّ، من مقابل الزاوية العلوية التي تقفون فيها وتسلقونني بنظراتكم وألسنتكم، مِن هنا حيث أنا المطرودة من رحماتكم، اسمي غير مهم، ونسبي غير مهم، وعمري غير مهم، الأهم الوحيد هو لقبي: «مطلقة» أو «أرملة».

أحدثكم حيث أنا بالأسفل، وأنتم هناك بالأعلى، منزهين عن قرارات الرجوع، مستثنوْن من أقدار الموت التي تخطف أحبابكم، معصومين من الحب الذي ينقلب كرها، ومن الحياة التي تستحيل -فجأة أو بالتدريج- مع أحدهم، خارجين على القضاء، تختارون أنتم، وتقررون أنتم، ونبقى نحن عالاتٍ على المجتمع.

لا يهمك، إن مات زوجي مبكرا، وكل الأزواج يموتون، فعلى كل حالٍ سأنال شفقتك، كأن الميت قضى عليّ بالموت معه، أو كأن ملك الموت حين قبضه قبضني، ونسى المشيعون جسمي في غرفتي، ونسوني، ثم حين تفاجؤوا بوجودي على قيد الحياة، تخيلوني شبحا كأشباح الموتى، أظهر لهم فيستعيذون مني، أبتسم لهم فيقولون: «إنها الندَّاهة»، أغرب عنهم فيقولون: «إنها تعد المصيدة»، أقترب منهم فيقولون: «احترس»، أبتعد عنهم فيقولون: «لعلها تظهر في شكلٍ آخر».

لا يهمك، إن أراد الله لي تغير الحال وتقليب القلوب، أو لأسبابٍ لا تعلمها، فصرتُ الحائزة على أبشع لقبٍ في الأرض، اللقب سيئ السمعة: «مطلقة»، أو كما يسمعها الناس في دواخلهم، كلٌّ حسب سعة خياله ومد بصره. فيراني الناس تلك «الغول»، بشعرٍ منكوش، وعينين حمراوين، آكل الرجال في الشوارع، وأصطاد الذكور من الميادين، وأضحك كأشرار سبيستون آخر كل ليلة، وأسأل نفسي: مَن الضحية الجديدة اليوم سيدتي؟

لا يهم، كل هذا لا يعني الناس شيئا، ولا يصدقون إلا نظراتهم، تريد المرأة منا أن تقول لهم: تخيلوا؟ أنا سيدة، بدون الرجل الذي رحل بالموت أو بالحياة، أنا سيدة، فلا يتخيلون هذا، ولا تسعفهم عيونهم على رؤيتي كما أنا.

سيدي الرجل الكريم، الحنون، العطوف..

ممتنة للطفك الزائد على حده، وشاكرة لأفضالك التي أستحسن انعدامها، وراجية من حضرتك أن توفِّر كلماتك العذبة، ونظراتك المتأسفة، وعيونك المشفقة، وأن تملأ عينك بالتراب بدلا من أن متلأها بالعطف على أحدٍ لا يستدعي عطفك، لا تتخيلني نصف امرأة، ولا شبه سيدة، ولا بضاعة من آخر القفَص، ولا فاكهة مر عليها الزمن، وهي في باب الثلاجة تشكو وحدتها، فتقرر -بمنتهى اللطف- أن تنتشلها من حالها إلى حالك، ومن فراغها إلى الامتلاء بك. عفوا، الشخص الذي تحاول الاتصال به غير موجودٍ بالخدمة.

أنا هنا، كأي أنثى، كأي سيدة لا تحب أن تضطر للدفاع عن نفسها ولو دقيقة، كاملة بلا نقصٍ كالذي في عقولكم، وقورا بلا خفةٍ كالتي في رؤوسكم، رفيعةً لا كالثمن البخس دراهم معدودة كالتي تظنوننا مقابلا لها، جميلةً لا كالقبح الذي في صدوركم، حيية لا كالجرأة التي تأكلني كلما نظرتم إليّ!

حضرة المجتمع المبجل..

لا أقول ضع نفسك مكاني، لأنني لستُ في مكانٍ موبوء، وإنما أدعوك لأن يلزم كل أفرادك أماكنهم، وأن يخلعوا النظارات السوداء من عيونهم متى أرادوا التأمل، وأن يختبروا

نواياهم الخيّرة في موضعٍ غير ترملي أو طلاقي، وأن يحفظوا صدقاتهم للجمعيات الخيرية فلا يختبروا قدرتهم على العطاء عندنا.

حضرة المجتمع الطاهر..

لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا، لا عطفا ولا حنانا، وإنما كل ما نريده أن تكف عنا يديك، وأن تُسلمنا من لسانك، وأن تنظر إلينا على السواء، بلا اعتبارٍ لعرفك المريض، ونظرك المعتل، ومقياسك المختل.

لا أطلب من أفرادك، حماهم الله، أن يشكلوا جمعياتٍ لرعايتنا، فإننا لسنا فضلاتك لنحتاج إلى إعادة تدوير، ولا أن يتصدقوا علينا فلسنا نائمات في الطرقات ولا عابرات سبيل، ولا أن يكفل كل منهم كلا منا، فلسنا إرثا يتقاسمونه فيما بينهم، ولا أن يفكروا في أسى تجاهنا، فلسنا قادماتٍ من محرقةٍ ولا ناجياتٍ من الحرب، ولا أن يعقدوا لنا جلسات استماع، فنحن هنا سيدات فُضليات، لا متهمات في قاعة محكمة.

أختي الأنثى،

أنا أنت لكن في وضعٍ آخر وتحت ظروفٍ مختلفة، لستُ

مختلفةً عنك في شيء إلا القدر، وكل إنسانٍ يختلف عن غيره في كتاب حياته، لكننا تحت عنوان الكتاب نفسه: أنثى.

فلا داعي للخوف مني إلى هذه الدرجة، ولا إلى تخبئة زوجك في جيبك كلما رأيتِني، ولا إلى سد منافذ أذنيه أثناء حديثي، ولا إلى النظر إليه بعيون المخبرين إذا ذكر لأي سببٍ اسمي، فلستُ سرطانا ليواري عني بكلمة «هي» بدلا من ذكر اسمي، كما كان يفعل أجدادنا مع السرطان فيقولون بدلا منه «الخبيث».

سيدي الرجل وسيدتي المرأة..

أنا هنا بجواركم لا في الأسفل؛

أقيموا عيونكم في وضع النظر الطبيعي.. حينها تستطيعون رؤيتي.



(٢)

إلى الرجل الذي قال لي: لن تصل..

تحية طيبة وبعد،

بدايةً أشكرك؛ لأنني لستُ من هواة الرسائل ولا أجيد الكتابة، لكنك جعلتني اليوم أجربها وأراسلك، لأنبئك بآخر أخباري، وأقول لك ما الجديد في حياتي التي وعدتني أنها ستسوء أكثر.

أتذكر جيدا ذلك اليوم الذي أخبرتني فيه بأسوأ الأشياء التي قد يقولها إنسانٌ إلى آخر، وروعتني من الدنيا وأرهبتني من الأيام، وتخيلتني أنتظر كل يوم صدق نبوءتك بأنني لن أفعل شيئا، وأنه كان غيري أفلح! وضحكتَ كثيرا، وتردد صدى ضحكاتك في جوفي خوفا وحزنا، وشعرتُ بالدنيا تضيق رغم سعتها قبل حديثك، وأحسستُ بصدري يضيق.

أتذكر جيدا تلك الليلة التي أنصتُّ فيها إلى كلامك مع نفسي حين دخلت غرفتي، وقلبت الكلام بين أذنيّ يمينا وشمالا فلم أجد فيه حرفا يُؤخذ بعين الاعتبار، لكنني عدت وخفتُ، وعدت أطمئن نفسي، ووجدت نفسي، من تلقاء نفسي، أكرهك، وأقول: غدا سيرى.

وللأسف سيدي لن ترى، لأنني اكتفيتُ بالرسالة بدلا من القدوم إليك، ووجدت في حياتي ألف شيء يستحق الساعة التي قد أضيعها عندك، ووجدتُّ من الصعب على نفسي أن أجعلك تراني بسهولةٍ في الحالتين، حين قلتَ لي: غدا لن تُرى، فوددت الآن أن أرد عليك بالرسالة نفسها: اليوم لن تَرى.

وأسألك، وأحب أن أجد عندك الإجابة..

هل تفكر عادةً قبل رمي كلماتك أم أنها تهرب منك بلا رقابة؟ هل تحذف سلطاتك العقلية المشاهد المخلة أم تدعها للمشاهد؟ هل تحكم لسانك أم لسانك الذي يحكمك؟ هل تعرف أن كلماتك كالطلقات وفمك كالمسدس؟ وأن الحروف المخزنة بجوفك تفصح عن سوادٍ كبير؟ هل تعلم أن الكلمة وحدها لها القدرة على القتل؟ وأن الكثير من الضحك يتسبب في البكاء؟ وأن الكثير من السخرية تستدعي العناد؟

وأسألك سؤالا ثانيا،

هل كنتُ الوحيد أم أنك قاتل متسلسل؟ هل كنتُ أول قتيل ينجو؟ وكم عدد ضحاياك؟ هل تكون مدركا وأنت تقتل أنكً تقتل؟ أم تتفاجأ بالهياكل العظمية حين تتجول كل صباح بحديقة منزلك؟ كم جثةً رأيتَ عليها بصماتك؟ وكم جانيًا في الدنيا مثلك؟ وكم ناجيا في الدنيا مثلي؟ وكم عدد الجسور المقطوعة بسبب لسانك؟ وكم عدد الأعناق المذبوحة لأنها صدقت على حكمك؟ ومن هم الأبرياء الذين آثروا الاستسلام على تحدي كلمتك؟

سيدي الذي أخبرتني بأنني لن أصل،

شكرا لكلماتك، التي لولا تحديها، ما وصلت.



(٣)

عزيزي الإنسان..

تحياتي الطيبة إليك،

هذه الرسالة فيها شكوايَ منك إليك، وعتابي عليك، لأقول لك إن الطريقة التي تتعامل بها معي تؤذيني، ونظراتك تجرحني، وأسئلتك لأمي تزعجها وتزعجني، واقترابك أكثر من اللازم يخيفني، ليس لأنك سيئ، لا سمح الله، لكن لأنني مولودٌ ورصيدي من الثقة محدود، لا أستطيع الاطمئنان سوى لهذه السيدة فقط.

ستجدني في أغلب الأحوال ساهما، أنظر إلى السماء، أتأمل في الكائنات كأنني نبي، وأهرب ببصري إلى الأرض كأن شيئا ما يقع مني كل ثانية، ولا أنظر إلى عينيك أبدا، كأنني سأفاجأ فيهما بملك الموت، وأتجنب أن ألمس أي أحد، أو أن يلمسني أحد، آوي إلى ركنٍ، وأتخذ زاوية حادة أتكور فيها على نفسي.

اسمي مثل أي اسمٍ تحبه، لكن وصفي: «متوحد»، وهو شيء يجعل كل شيء عندي مبالغا فيه، أسمع صوتك العادي كأنه من مكبر صوت، فكيف إذا صرختَ فيّ؟ وأرى عينيك الوادعتين تلتهمان عيني، فكيف إذا نظرت إلي بغضب؟ وأشعر بأن أصوات مفاتيحك التي تظن نفسك تلاعبني بها، ألف صوتٍ متداخل معا، فكيف إذا سكبت كل أصواتك دفعةً واحدة في أذني؟ وكل شيء حولي لا يفوتني، فتخيل كم شيئا أرى بالدقيقة، وكم صوتا أسمع، وكم رائحة أشم!

تضطرب حركة يدي، تقبض على يد أمي، أفلتها وأريد أن أهرب، إلى أين لا أعلم، لكن بداخلي شعورا قويا أن هناك عالما يناسبني أكثر من هذا، ثم تنظر إليّ، وتتوقف طويلا، وتحدق بي، وتقول في نفسك: أعان الله أمه، وتقول بصوتٍ أسمعه: مجنون، وتقول بكل جوارحك: مريض، وأريد أن أثبت لك أنني لستُ مجنونا ولا مريضا، وإنما أنا فقط مختلف، لكنك لا تدع لي الفرصة، وما عندك من كبرياء لا يسمح لمثلي أن يكون نسخةً مختلفةً عنك.

سيدي الإنسان، أنا وحيدٌ جدا، رغم وجود أمي حتى، أنا مع نفسي في عالم من الجمادات، أعاني من البشر وضجيجهم المستمر إلى الأبد، لا أراك سيدي إطلاقا، وأراك أكثر من اللازم.

هذه الورقة البيضاء أمامي، وتلك الخطوط المتقاطعة عليها، وتلك الألوان، ليسوا غريبين كما ترى، وإنما في مجالٍ آخر من الإدراك، لا علاقة لك به، هو عالمي وأنا وحدي الذي أفهمه، فلا تنظر إلي هكذا، أرجوك.

هل تسمع هذا الإزعاج حولك؟ هل ترى هذه الأشياء؟ هل تتذكر حين صرختَ مرةً من الزحام الذي يعصف برأسك وقلت: «كفاية»؟ ودخلت غرفتك، وبكيت، ولجأت إلى حبة دواء، وغصت في نومٍ طويل، ثم أفقت منه طبيعيا من جديد. هذا الإنسان الذي كنتَه قبل دقائق ولم تتحمله دقيقتين، هذا الإنسانُ هو أنا من أول يومٍ إلى آخر يوم، وطوال الساعات كل يوم، فهلا تحملتَ صراخي مرةً في اليوم؟ أو لا تتحمله، فقط ابتعد، ودعني أصرخ في الضجيج لينتهي.

أصابعي التي تتحرك بلا هوادة، وعيوني التي تذهب وتجيء ولا تستقر، وأقدامي التي تتداخل معا، وعروقي التي تنفر من كل مكانٍ في وجهي، ودموعي التي ستفيض بلا توقف، وأعصابي التي ترفع حالة التأهب القصوى، وجسمي الذي يتعرق بغزارة، كل هذه الأشياء تتعبك قراءتها، أفلا يتعبني أنها مكتوبة عليّ ليل نهار؟

سيدي الإنسان،

أنا مقدرٌ لكل هذا اللطف، ممتن لحلواك الجميلة، تمنيتُ لو استطعت أن أقبلها منك، أن أشكرك عليها، ممتن لنظراتك السائلة، وددت لو أجبتك على كل أسئلتك، وأن أجيب نيابةً عن أمي المصابة بالتحرج ما دمتُ مصابا بالتوحد، وممتن لمحاولاتك بأن تقترب مني، وددت لو رددت على تلك المحاولات بعناق طويل، أحكي لك فيه كل ما يوجعني، لكنني، يا سيدي الإنسان، لا أستطيع.

أمي الحبيبة،

أبكي الآن وأنا أحدثك، لأن كل الحديث مكتومٌ بداخلي، كيف سأخرجه لك؟ وكيف سأعبر لك عنه؟ أظنك ستفهمين نظراتي تلك، ولا يفهمني وأنا صامت طوال الوقت غيرك. أريد أن أقبل يديك ولا أقوى على ذلك، وأن أقبل رأسك وقدميك، وأقول لك: سامحيني، كنتُ أتمنى الخروج من رحمك إلى رحمتك بهدوء أكثر، وطبيعيا ككل المواليد، لكن هذا نصيبك ونصيبي، وكثيرا ما أسأل نفسي، هل أستطيع الخروج من الدنيا من دون أن تشعري؟ فقط لأريحك.

ماما،

أعرف أنك تودين سماعها، تريدين نداءك بها دائما، تريدين أن تبيعي لي نصف عمرك وأقولها، وأنا والله أود قولها وفوقها عمري كله لك، لكن شيئا ما يمنعني، يجعلني أبتلع الكلمات، وأنا أختنق بها، وأشعر أنني سأموت وأقولها، أو سأقولها حتى أعيش، لكن في النهاية يبقى الحال كما هو، أنت تختنقين بكلمةٍ تودين سماعها، وأنا أختنق بكلمة أود قولها.

ماما،

أنا أعتذر لك على كل ما أسببه كل يومٍ من حرج، على الفوضى التي في البيت، والصراخ الذي في الشارع، والصمت الذي أمامك، والصوت الذي يحضر كلما غبتِ عني، ووجودك في مجال رؤيتي وخارجه في الوقت ذاته، وحبي الكبير لك لكنه بلا دليل، وأود قبل موتي ولو بمرةٍ واحدةٍ فقط، أخبرك فيها بهذا الكلام بصوتي لا بصوت قلمي، ستأتين عندما تقرئين هذا، وتضمينني وتبكين، وأنا أريد أن أفعل أكثر، لكنني مجددا لن أستطيع.

أبي الصبور،

أكاد لا أعرفك، سامحني، لكنني أتذكر وجهك بين الحين والآخر، وأريد أن أسألك كما فعل الأطفال تجاه آبائهم، أن

أكون شقيا فتغضب مني، وأن أكون مجتهدا فتسعد بي، وأن أكون ابنا فتشعر بأنك أبٌ، كل هذا وأكثر، أنا أريده أكثر منك، لكن من أنت؟ أكاد لا أعرفك، سامحني، أعدك بأن أتذكر وجهك بين الحين والآخر.



(٤)

عزيزي المستمع،

حاولت أكثر من مرةٍ أن أخبرك بما أود قوله، لكنك لم تدع لي مجالا للحديث، ولذلك السبب قررتُ أن أكتب إليك هذا، لعلك حين تقرأه منفردا، بلا تبادل للكلام، لن تستطيع مقاطعته.

اعذرني على السوداوية التي أشركك معي فيها حين تطلب مني أن أحكي، وعلى الصمت الذي يكون في كثير من الأحيان عنوانا للحديث بيننا، وعلى الشجن الذي تراه في عيني، وتحاول أن تُخرج مني الكلام بجهد كبير، لكنك في النهاية لا تستطيع، وأنا في النهاية لا أتكلم.

ثم إذا اتكلمت، بعد معاناة مع الصمت، هل ستسمعني؟ هل تظنني عازفا عن الحديث رغبة مني في الخرس؟ أم ربما لأن الحديث يكون بلا وزنٍ، ولا يريح رغم قولهم إنه سبيلٌ

للراحة؟ هناك خللٌ ما، سيدي، يجعلني أوثر السكوت في كل مرة، حتى وإن كنت بداخلي أتوق إلى الكلام.

تطلب مني أن أتكلم، فلماذا لا تسمعني؟ ولماذا كلما ذكرتُ لك أمرا يوجعني تزايد عليّ فيه، وتخبرني بأن أوجاعي بلا وزنٍ مقارنةً بأوجاع الناس؟ وهل تجوز المقارنة بين المرضى والأمراض؟ هل هناك أداةٌ تستطيع بها جس النبض في هذا وذاك، وتعرف أيهما متعَب أكثر من الآخر؟ أعرف صديقا مات بعد إصابته بالبرد، إثر مضاعفات، وأعرف صديقا يعيش بألف سلامٍ، بعد معاناة مع السرطان، فهل هناك معيارٌ نقيم على أساسه الأمراض؟

عزيزي المستمع،

أنا «مكتئب»، ربما لا شيء يزعجني بالتحديد، لكن كل شيء يزعجني بشكل عام، ربما بلا سبب، وربما من كثرة الأسباب لا أستطيع تحديد واحد منهم، ربما أستطيع التعبير عنه بالبوح، وربما يختنق في صدري من عجزي عن التعبير عنه، ربما علاجه بالصوت، أو علاجه بالصمت، ربما يسعني التفسير لك، وربما يكون وضعي فوق أي شرح، ربما سأحكي لك اليوم من دون أن تطلب، وربما سأحكي لك غدا بعد أن تيأس مني، فقط انتظر.

صدقني، أنا حين أنعزل فليس زهدا فيك، ولا غضبا منك، ولا كرها لك، وإنما لأنني أريد أن أرى نفسي، أن أتجرد لمرآتي، أن أراقب عيني تدمعان، وجسدي يهزل، وروحي ترتفع، والدنيا تزداد شحوبا، وينسكب كل ذلك السواد الذي بداخلي حولي، فأصير أخف وزنا، وأشعر بالطيران.

أنا لستُ مجنونا حين أذهب للطبيب، لطبيب المجانين النفسي، كما تراه، أنا فقط أريد أن أجد حلا، في أنني لا أملك مشكلة، أريد أن أحزن لسبب، وأن أبكي لسبب، وأن أنعزل لسبب، لا أن أكتئب كل فترةٍ ولا أجد سببا واحدا يدفعني إلى ذلك، ولا أجد سببا واحدا يدفعني إلى الحياة مع ذلك.

عزيزي المستمع،

لا تنظر إليّ متعجبا مني، لأنني أنا نفسي متعجب ولا أعرف ما وراء الأمر، لا تقل لي: افعل ولا تفعل، لأنني لستُ في موضعٍ يحتاج إلى الوصايا، ولا تذكرني بالمبتلين أكثر مني، لأنني هنا لا أرى غيري، ولا أتحمل رؤية العالم حتى تريني المبتلين فيه.

عزيزي المستمع،

فقط استمع لي، أشعِرني أن تعبي أشد تعبٍ في الدنيا، وأن تعافيَّ منه سيكون أعظم خبرٍ في الدنيا، أخبرني بأنني جميلٌ رغم خمول وجهي، وأنني محبوبٌ رغم الحنق الذي أحسه

تجاه العالم، وأنني إنسانٌ طبيعي جدا، أمرض وأُشفى، لا مجنون يُنصح بالابتعاد عنه، أخبرني أنها فترة وستمر. اعترف بأنني مريض اكتئاب، لا «دراما كوين»، أنني حقيقي جدا، ولا أمثل، أنني شخصٌ في الحياة لا ممثل في مسرحية، أنني عفوي، لا أتصرف بتكلف ولا تصنع، أنني مكتئب قليلا، لا أفعل ذلك من باب جلب التعاطف ولا لفت الأنظار.

عزيزي المستمع،

الآلام لا تقارَن، وكل صاحب وجع يتخيل أنه الأكثر وجعا في العالم، فلا تخبرني بأنني أفضل حالًا من غيري، ولا تقل لي انظر كم أنت بخير وليس بك شيء، بدلا من ذلك أخبرني أن بي شيئا لكنه سيزول، وأنني لستُ مفرط الحساسية، ولا مبالغا في الشعور، وإنما هذه طبيعتي التي خلقت بها، وتلك تركيبتي المختلفة عنك.

عزيزي المستمع،

تخلَّ اليوم عن لسانك واستبدل مكانه أذنا ثالثة..

ثم حين أنتهي من الكلام، لا أريد حلا لمشكلاتي، فقط أريد أن تربت على كتفي، وتأخذ يدي، وتخبرني بأنني غير شفاف، وأن صوتي غير مكتوم، وأنك تراني.



(٥)

صديقي خفيف الدم،

مرحبا بك، منذ كثيرٍ لم نلتقِ، أو التقينا بالصدفةِ في جمعٍ غفيرٍ ولم نتكلم، وهذا ليس من باب الصدفة أو من قبيل الانشغال، وإنما لأنني في الحقيقة لا أريد لقاءك أو الحديث معك، وباختصارٍ: لأنني أهرب منك.

أقدّر بشدة خفة دمك، وسرعة بديهتك، وحلاوة حديثك، والضحكات التي تحرص أن تتعالى حولك دائما، وأقدر حلمك الكبير في أن تكون «كوميديان» كل مجلس، وبهلوان كل جلسة، وأن يقول لك الناس دائما: «يا فقري»، «أنت مسخرة»، «يخرب بيت خفة دمك»، «تعيش وتبسطنا».

وأنا معهم أريد أن أقول لك ذلك، وأن أدعو لك بالسعادة، وأن أقول أضحك الله سنك، لولا أن محور الكوميديا التي تصنعها هو أنا؛ فأر التجارب الذي تختبر فيه نكاتك، والشخص المقصود بكل كلمةٍ تُرمى ليقهقه الجميع في

صخب، وأنا أود أن أجاريكم الضحك، لولا شيء في نفسي يقول لي: لا تضحك، وشيء يقول لي: لا تغضب.

صديقي خفيف الدم،

من فضلك لا تجعلني مجال سخريتك، ولا تقل لي نهاية كل مجلس: لا تضغب مني، كنا نضحك فقط. ثم حين أعود أنا إلى البيت يدور الحديث مجددا في رأسي، ويبدأ من أول دقيقة إلى آخر دقيقة، مع التوقفات بين كل كلمة والأخرى، مع النظرات مني وإلي، مع الجمهور الصارخ، مع عيونك التي تنتشي برؤية هؤلاء، وتغض الطرف عن رؤية هذا الصامت.

هل تعلم عدد الليالي التي لم أنم فيها بسبب كلماتك؟ وكم عدد الكلمات التي أتذكرها بالحرف حين قلتها عني؟ وكم هي الأثقال التي في صدري، وكلها منك؟ وكم مرةً حاولتُ فيها لفت نظرك لكن «البعيد أعمى»؟

حاولتُ كثيرا أن أعتبر الأمر طبيعيا، ألا أكون مزعجا بانزعاجي من تفاصيل صغيرة، ألا أكون حساسا «بزيادة»، أن أتجاوب مع الضحك كأن النكتة تدور حول بطلٍ غيري، لكنني فشلت.

صديقي خفيف الدم،

أعترف بضعفي، وأنكر استغلالك له، وأقول لك إنك أضعف من أن تجري الضحك على أحد غيري، وأخبرك بأن الضاحكين حولك لن يكونوا كذلك إن قررت وضع كلٍ منهم مكاني مرة، وأعرّفك بأنك إن أدرت الحديث حولك، فجعلت الغبي والأبله والأحمق، في كل نكتة، أنت، ستكون النكتة «بايخة» جدا، لأنك لن تحكيها من القلب.

صديقي خفيف الدم،

ما زلتُ أسمع ضحكتك الثقيلة، ما زلتُ أشعر برغبةٍ شديدة في البكاء.





رسالة كُتبت..
بالرصاص

(١)

إلى قاتلي،

سؤال يتردد على بالي منذ أمدٍ طويل، ورغم انشغالي بما أنا فيه من راحةٍ، لكنه يؤرقني ويقض مضجعي كل ليلة، وأسأل مَن حولي من الموتى، فيقولون إنهم لم يجربوا حتى يجيبوا، موتهم كان طبيعيا، لا بطلقة مثلي.

أسأل: هل نظرتَ في عيني قبل قتلي؟

أتعجب يا أخي، أقول لو نظرتَ في عينيَّ قبل أن تضغط بسبابتك على الزناد، ربما كنتَ ستفكر قليلا، كنتَ ستراجع نفسك، كنتَ ستسأل: أي مجرمٍ ذاك الذي يملك عينين بريئتين؟ ألا يُعرف المجرمون من عيونهم؟ أي وَحشٍ هذا الذي تسكن وجهه عينان أليفتان؟ أي شيطانٍ ذاك الذي خُلق بعيون ملاك؟

أتعجب، وأسأل نفسي، ولا أستطيع الجواب، تعلم؟ أضع نفسي مكانك في كثير من الأحيان، أقول لعلك لو مكانه

لفعلت، فأجرب، لأتعاطف معك، لأجد لك عذرا أسامحك بسببه، فأعود من مكانك إلى مكاني وأنا أشد سخطا عليك، حنقا منك، رغبةً في رد الطلقة عشرين طلقةً، تسكن صدرك ولا ترتد.

أحاول أن أضع عيني في النشان فلا أقوى، أتخيل نفسي القناص والهدف فلا أستطيع، أجد فتى يتحرك أمامي، يجري، يضحك، يبكي، تقترب منه سيدةٌ تبدو أنها أمه، تقترب منه فتاةٌ تبدو أنها حبيبته، يقترب منه فتى يبدو أنه صاحبه، فأقول كيف! لم يخبروننا أنه ليس وحده، هل سأقتل كل هؤلاء معه بما أنهم قطع منه، أم أتركهم وأقتله وحده فيموت جزء وتتبقى منه أجزاء؟

أعود، أرفع عيني من على النشان، أعيدها إلى النشان، وأفكر، أقول هو في مرماي، ولذا فأنا أقوى منه، وإذا بدلنا الأماكن سأكون أنا أضعف منه، فلا شيء يحكم بين القوة والضعف، غير هذه الحديدة، الذي يضع مؤخرتها في كتفه هو القوي، والذي في الجهة المقابلة تماما لفوّهتها هو الضعيف، لا أنا ولا هو.

أقول كيف فعلها إذَن؟ ثم إن السلاح طويل، وحمله ثقيل، والزناد يحتاج إلى دفعة، والأمان يحتاج إلى رفعة، والقرار

يحتاج إلى التفكير، والإطلاق هو آخر قرار، فمن أين بدأ بالشيء الأخير؟

وأفكر ثانيا وثالثا وعاشرا، مَن الذي يقوى على مشاركة الله في أقداره فيجني الأرواح رغم أنه ليس عزرائيل! لو خُيرت بين أن أكون بشرا يموت أولًا أو أن أكون ملك الموت فأموت آخرا، لاخترت أن أكون أول الموتى! فكيف وأنتَ لم تكن مخيرا، قررتَ ببساطة استغلال نفوذٍ ليس لك، وركوب منصبٍ يتولاه غيرك، والتسمي بوظيفةٍ هي الأخطر في الكون على الإطلاق؟

ثم كيف، سيدي القاتل، لم تعبأ بكل هؤلاء؟ لم ترَ الحضن الحار بيني وبين أمي، لم تسمع الكلمات التي قالتها خطيبتي، لم تشهد الضحك الذي ضحكناه أنا وصديقي معا، ولم يكن بحسبانهم أنه الحضن الأخير والكلمات الأخيرة والضحكات الأخيرة، لم يقولوا كل شيءٍ يريدونه، لم تحضنّي أمي بالدرجة التي كانت ستفلعها، إن أبلغتها أنها النهاية، لم تقل لي حبيبتي: أحبك، لو علمت لقالتها لأول مرةٍ وآخر مرة، لم يهمس لي صديقي بسرٍّ أخير، كان سيقوله لو علم أنني سأذهب بعد دقيقتين. متى قررت، وكيف قررت، ولماذا قررت أن تنهي كل العلاقات العميقة المعقدة بكل هذه البساطة؟

ثم يا سيدي، إن منظر الدماء لم يرق لي، تخيلتها تفور منك فكاد يُغشى عليّ، وقلتُ لنفسي أي إنسانٍ ذاك الذي يقوى على الاغتسال كل مساءٍ بالدم، وأن يتعطر كل ليلةٍ برائحته، ويضحك كل صباح وهو في ذهنه ثابتٌ، كنافورةٍ لا تنتهي أبدا، كنهرٍ منبعه في البندقية ومصبه في الذاكرة.

ثم كيف لم تسد أذنك عن صرختي؟ حين رأيت إعادة المشهد وأنا هنا، ورأيتُك ورأيتُني، وجدت متضادين اثنين، أحدهما يصرخ صرخةً اقتلعت أسماع الناس، والآخر يضحك ضحكةً اقتلعت أفئدة الناس، وأراني أسقط، وأراك تقفز، وأرى في المشهد فاصلا بين الحياة والموت، قرره إصبعك الذي ضغط على الزناد، وأسأل نفسي وأنا أشاهده: كيف لإصبعٍ أن يقرر حياة المرء أو موته؟

ثم رأيتهم حولي، يجرون تجاهي، يبكي كل منهم من زاوية في فؤاده، ويشاركونني المشاهد كلها، ويشاهدون معي الشريط الذي يُعرض عليَّ وأنا في السكرات، ويريدون إيقاف الشريط بسرعة، ولا يتوقف، ويريدون قصه فيأبى، ويريدون حذف المشهد منه فيستمر ويتكرر، إلى أن يأتي المشهد الأخير، الذي اخترقت فيه الرصاصة جسدي، فسقطت، وأسدل ستار النهاية.

وهم حولي، يحملني كل منهم ألف مرةٍ دون رفع جسدي، أسقط من أياديهم أو يسقطون هم، تسيل دمائي وتفور دماؤهم، أقع ويُغشى عليهم، أعانق عيونهم ويرهبون النظر في عيني، أقطع الكلمات ويحاولون سماعها، أنادي كل منهم باسمه، ويقولون جميعا: حبيبي. أبتسم ابتسامةً أخيرةً، وفي حلقي حزنٌ كبير، وفي لساني اعتذارٌ كبير، وفي جسدي وجعٌ كبير، لكن ابتسامتي هي التي يرونها، فيقولون: رحل مبتسما.

يا قاتلي،

كيف استطعت بأنملةٍ واحدةٍ أن تحصد أربعة أرواحٍ؟ وكيف استطعت برصاصةٍ واحدةٍ أن تقتل ماضيا أحببتُهم فيه، وحاضرا غادرتهم عنده، ومستقبلا كنتُ سأنجبه، وطفلا كان سيكبر ذات يومٍ، وينجب أطفالا يكبرون ذات يومٍ، وينجبون أطفالا يكبرونً وينجبون، ذرية إلى الأبد؟ كيفً استطعت بسهولةٍ قتل الأبد؟

ثم جربتُ أن أخلع قلبي، وأمسك البندقية، وأضع يدي على الزناد، وأطلق الرصاصة، فتخترق جسمي، وأسقط، رغم أني على الطرف الآخر مسلح بلا قلب، لم أستطع، ووجدت عقلي يرفض الاستيعاب، ويقول: احسب حسبةً لا تحتاج إلى درس في الرياضيات، أنت موكل بقتل واحدٍ، لكن هذا الواحد به عشرة، فكيف ستنفذ القرار؟

وجربتُ أن أخلع عقلي، وأمسك البندقية، وأضع يدي على الزناد، وأطلق الرصاصة، فتخترق جسمي، وأسقط، رغم أني على الطرف الآخر مسلح بلا عقل، لم أستطع، ووجدت قلبي يحبني، ويشعر بي، ويتألم أن قلبا في الجهة المقابلة سينزف، وقلوبا ستصرخ، وأنياطا ستقطع، وشغافا سيتمزق، وألف قلبٍ سيحترق، فقلتُ إنك موكلٌ بقتل قلبٍ واحدٍ، لكنك ستقتل ألف قلبٍ معه، فكيف ستنفذ القرار؟

وجربتُ أن أخلع قلبي وعقلي، فوجدت عيني تراني على الطرف الآخر، غزالا يجري، وطفلا وديعا يمرح، وفرسا يتراقص على أنغام الحياة، له عينان بريئتان، وصدر واسع، ووجه جميل، فقلتُ أنت موكلٌ بقتل وحشٍ، لكنه كما ترى، فكيف ستنفذ قرار القتل في ملاك؟

وجربتُ أن أخلع قلبي وعقلي وعيني، فوجدت يدي تعترض، وتقول: لا، اعفني من هذه الجريمة، أنا أشرف منك، وأضعف من أن أضغط على زر الحياة والموت، وأطهر من أن أغتسل من الدم في الدم، نفذ قرارك بشيء آخر غيري، أناملي بريئة منك، وأصابعي متمردة عليك، فكيف ستنفذ القرار؟

وجربتُ أن أكون قدمين فقط، وأخلع ذراعي وصدري ورأسي، فوجدتهما لا تقويان على حملي، وتقولان إن الأمر

ثقيل، ونحن قادرتان على حمل إنسانٍ فقط، ونضحي أكثر فنحملاه بهمومه وأفكاره، لكننا لَا نستطيع أن نحمل كل هذا الثقل معك، نحن ذاهبتان عنك، فكيف ستنفذ القرار؟

فتلاشيتُ، لمجرد التفكير، واختفيتُ في اللاشيء، وبحثتُ عني فلم أجدني، ولم أجد إلا سلاحا بلا حامله، موجها نحو إنسانٍ بلا سلاح، في الطرف الآخر، ما زال يجري، ما زال يتحرك، ما زال يحضن أمه، ويحدث حبيبته، ويضحك مع صديقه، والزناد في الأعلى ثابتٌ في مكانه، لا يضغط عليه أحد.

يا قاتلي،

أنا حين فكرتُ لم أنم الليل بطوله، وصرتُ لنفسي كابوسا، وأنا أنا، الضحية، فكيف، وأنت أنت المجرم، كيف تقضي الليل؟ كيف ترى الأطفال أطفالا، لا مجرمين يستحقون القتل؟ كيف ترى كل النساء شيئا آخر غير أمي، وهي تسقط بعد سقوطي من الحضن الأخير؟ كيف ترى أصدقاءك مختلفين عن وجه صديقي الضاحك؟ كيف ترى حبيبتك -إن عرفت الحب- امرأة أخرى غير حبيبتي التي خطفتني منها قبل أن تقول: أحبك؟

يحيرني السؤال، وتكويني الإجابة الفارغة، تنسيني الآخرة هموم الدنيا، وينسيني زنادك ما أنا فيه من النعيم، وأُجَنّ، وتفور

فصوص عقلي، وأنا أسأل نفسي: هل رآني حين ضغط الزناد؟ لا بد أنه رآني، وهو القناص، لكن ربما أخطأ الهدف؟ لكن فرحته بعد الهدف تؤكد أنه أصاب الشباك الصحيحة، ربما ظنَّني أحدا غيري؟ مستحيل، كان في قمة تركيزه، هل كانت الرصاصة طائشة؟ إطلاقا، فقد كان جسمي أداة الرهان، هل كان سيقتل غيري بدلا مني؟ أبدا، بجواري عشرة فتيةٍ في نفس عمري، أصابهم القناص نفسه، فقتلني وقتل غيري، هل كان معصوب العينين؟ لا، بل كانت إحداهما مغمضة، والأخرى تحدق بالمنظار.

وأعود يا قاتلي أقول: إن لي عينين حالمتين، آمرتين بالمعروف بحد ذاتهما وناهيتين عن المنكر، داعيتين إلى الحياة، ومنقذتين من الموت، مسالمتين كالقمح، جميلتين كالياسمين، باسمتين كثغر أمي، لو رآهما أي مجرمٍ لسلم نفسه طالبا التكفير عن ذنبه، لو صافحهما أي قاتلٍ وهو في طريقه إلى مهمة القتل، لقبلهما ورمى سلاحه في النهر، لو طالبتا أي ظالمٍ بالكف عن ظلمه، لفتح قصره للشعب ديوانًا للمظالم.

يا قاتلي، أعود أسأل: هل نظرتَ في عينيّ قبل أن تدوس على الزناد؟





رسائل عثر عليها
في جواز سفرٍ محترق

(١)

الواحدة صباحا،

مطار القاهرة الدولي..

صالة المغادرين..

أخيرا، وبعد محاولات كثيرة، وقضاء نصف عمري أجمع ثمن التذكرة تارة، والتأشيرة تارة، وأجري بين الأروقة لاستخراج الأوراق، والتحايل على المصالح التي تتحايل علينا، ومن مدام «عفاف» في الدور الثالث إلى أستاذ «سيد» في المجمع، ومن التحرير إلى العباسية، ومن تصوير المستندات ٤ في ٦ إلى تصويري شخصيا «وش وضهر»، ومن «تعال بكرة» إلى «بكرة» الذي لا يأتي أبدا، ومن المكتب الذي وقع لي عليه الأستاذ «عبده» الأوراق كأنني أنتظر نجمي المفضل ليوقع لي بالأوتوجراف، وهو يشعر بنفسه كذلك، إلى الختم الذي في خزانةٍ تبعد عن مكتب الأستاذ «عبده» ثلاثمائة

كيلومتر، ومن استخراج الشهادات إلى استنطاق الشهادة، الحمد لله نجوت.

مررت من الجوازات، وأخذت الختم الأخير، بعدما انتظرتُ الرجل نصف ساعةٍ لأن مدام عفاف أعدت للموظفين اليوم «حلة كرنب» أكلوا أصابعهم وراءها، فلم يجدوا ما يمسكون به الختامة، فاضطررت إلى الانتظار ثلاثة أعوامٍ أمام النافذة حتى نمت أصابعه من جديد، لكن المحشي كانً ثقيلا فقالوا لي إنه في الحمام من نصف ساعة، وانتظرتُ لكن الأمر تطور إلى غسيل كلى ثلاث مراتٍ أسبوعيا، عافانا الله وإياكم، ثم بعد دورةِ العلاج الكاملة بالقصر العيني، وصل الموظف الموكل بألف سلامة، واستقبلوه أحسن استقبال، وكنتُ بالطابور أمامه، وجلس نصف ساعةٍ يستجوبني لأن لحيتي طالت وعيناي جحظتا وبدأ بعض الشعر الأبيض يغزو رأسي، فشرحت له أنني كنت منتظرا هنا من سنواتٍ لا أتذكرها، إلى أن أتى بالسلامة، غمز لي فغمزته الغمزة التي يريدها، والحمد لله، الآن سأصعد سلم الطائرة.

من بين أصدقائي جميعا، أنا الذي فزت بالتأشيرة، قدمنا عليها لكنها لم تأتِ، لكن مَن ذا الذي يستسلم؟ في المرة التاسعة أعطوني التأشيرة، قالوا حتى إذا كنتَ تصر إلى هذه الدرجة لأنك ستغتال شخصية ما، فبإمكانك فعل ذلك، تفضل.

وتركتُ خلفي أهلا وعيالا أريد أن أسترهم، فقررتُ ترك اللحاف والبطانية، لألحق بالطائرة المتوجهة من بلاد العمال إلى بلاد المال، وفيها سأستوي على مقعد اشتريتُه بدم قلبي، ولولا الملامة لأخذته معي من الطائرة كتذكار، لكنني سأكتفي بأخذ البطانية والوسادة الخفيفتين، وأضحك للمضيفة وتضحك لي، وأهمس لها في أذنها: «بفلوسي».

وهأنذا أمام حلمي أخيرا، لأستطيع شق طريق جديد، أملأ جيوبي منه بدلا من «الفكة»، وأضع فيه يدي فتدفأ لا تعبر نحو فخذي لأن الجيب مقطوع، ويكون البنطال مهندما لأنه مربوط بحزامٍ لا بحبل، وأستبدل بالسديري قميصا أبيض، يقول إنني موظف محترم.

وأنا من زمنٍ طويل أخطط في أجندة، أخذتها معي، ستصعد معي الطائرة تكريما لها، ولأن بها كل الأفكار التي جمعتها، وكل الأموال التي سأدخرها، وكل الأموال التي سأرسلها مضروبةً في سعر الصرف بالمصري، وكل الأشياء التي سأشتريها، وإيجار الغرفة بحمام ومطبخ، وثمن بدلة البشوات، وثمن تفصيل القمصان، وأجرة السائق الذي سيقلني من المطار، وأجرة العربة التي سأحمل عليها حقائبي، وأجرة زجاجة المياه التي لن أشتريها لأنها غالية.

ومعي في الحقائب أحلامي وآلامي، طموحاتي وأطروحاتي، فكري وفقري، تحويشة عمري، وعمري نفسه، وماكينة الحلاقة، وملابسي الداخلية العتيقة، وبدلة استعرتها من صديقي وقلتُ سأرسل لك أفضل منها، وعطر من العتبة، رخيص لكنه فواح، وحجاب أمي لي، ومصحف، وسجادة صلاة.

ومعي في عيني دموعي وشموعي، ظلامي وضيائي، المرار الذي رأيته مِرارا والحلو الذي أموت وأراه، الماضي الذي أهرب منه والمستقبل الذي أهرب إليه، الوجوه المبتسمة رغم حزنها والوجوه الجديدة التي لا أعرفها.

ومعي في أنفي رائحة حضن أمي ورائحة طعامها ورائحة البلاد التي سأنزل بها، رائحة العرق التي اتخذت في رئتي مسكنا ورائحة العطور التي سأشمها أول ما أنزل من الطائرة، رائحة الطعمية والفول والمسقعة والملوخية ورائحة الأكلات الغريبة التي لو رآها أهلنا البسطاء لرموها في القمامة، رائحة عوادم السيارات وأدخنة المصانع ورائحة مداخل المباني التي كنت أراها في التلفاز وقريبا سأدخلها.

ومعي في حلقي طعم العلقم الذي كنتُ أشربه ساخطا وراضيا وطعم العسل الذي سأفطر به والشكولاتة التي سأصنع منها كل يومٍ ساندويتش، طعم المرمطة على أبواب

المصانع والشركات وطعم المرتب آخر الشهر حين أقبله ورقة ورقة.

إنها الطائرة الآن على وشك الإقلاع، وإنني الآن من قبل إقلاعها أراني محلقا في الجو، ألقي السلام على السحاب، وأراقب البيوت وهي تتضاءل من الأعلى، وأقول كم أنت صغيرة أيتها الكبيرة جدا، وأنظر إلى انعكاس وجهي في شباك الطائرة بجواري، وأقول كم أنت مرتفعٌ أيها المنخفض جدا، وأنظر أمامي، ولا أريد أن أفوت لحظة من بداية الرحلة، لكنني سأغوص في نومٍ طويل، تقطعه نبرةٌ رقيقة: «تشيكِن أور ميت»، فأشير لها بإصبعيّ الاثنين وأضحك وتضحك، فأقول لها: «بفلوسي»، وأغوص في النوم مجددا، وأستيقظ على صوتٍ يحاول أن يكون رقيقا، يقول: «أعزاءنا المسافرين، نتمنى لكم إقامة ممتعة، ويسعدنا رؤيتكم على متن إحدى رحلاتنا القريبة، حمدا لله على سلامتكم، تصحبكم السلامة».



(٢)

أول شهر،

جميل هو السفر يا أخي، يبدو من بعيد متعبا قليلا، لكنك تتعود مع الوقت، لم يمضِ الكثير عليّ هنا، فقط شهر، قبل ثلاثين يوما كنتُ في المطار، واليوم أنا هنا في الغرفة، أعد أول راتبٍ لي، وأحسب منه ما سأتركه للإيجار والمطبخ والبيت والتسوق، وثمن بدلةٍ جديدة، وما سأضعه جانبا للإدّخار.

تبدو الحياة رتيبةً بعض الشيء، لكنني أتعرف على الناس بسرعة، وأكوّن أصدقاء في كل مكان، وتبدو الدنيا غريبةً بعض الشيء، لكنها تمر على كل حال، أفضل من ذي قبل.

أكتب الآن ليس بمناسبة الراتب ولا مرور أول شهر، وإنما لأشكو شيئا بسيطا، حاولت التأقلم عليه ولم أستطع، ولا أتقبله حتى الآن، أحاول أن آكل وحدي لأول مرة في حياتي، وأنا أعتقد أن الطعام لم يخلق إلا للمشاركة، وإن الطبق الواحد لا يصح أن يكون ملك يد واحدٍ، وإنما يتشاركه اثنان

أو أكثر، ومهما كان لذيذا فإنه يكون بلا طعم حين تمضغه وحدك، ومهما كان كثيرا فإنه لا يُشبع، ومهما كان بزيادةٍ، فإنك تترك الطبق كما هو، وأنت لا تعرف هل تركتته من شبعٍ أم من زهدٍ.

لكن الحمد لله على كل حال، أحاول أن أكتفي بالوجبة التي أتناولها في العمل مع الزملاء، أجاذبهم أطراف الحديث لكنهم يبدون كئيبين أكثر من اللازم، نضحك ونتحدث عن البلد والغربة، لكنهم حكيمون إلى درجة مملة، وينظّرون على كل شيء، وكلما تحدثتُ عن البلد الجديد الذي صرتُ فيه، وبلدُهم القديم الذي قطعوا تذكرته قبلي، نظروا إليّ في شفقة، وقالوا: «بكرة تعرف».

وأنا لا أعرف ماذا سأعرف، ولا أدري لمَ يكون الغداء موعدا للغمّ، فنجد أحدنا يأخذ طبقه ويأكله في مكتبه، وأستنكر بداخلي، وأقول كيف يترك المرء الجماعة ويمضغ طعامه وحده، كيف يبتلعه؟ وكيف ينزل من زوره؟

ثم أصمت، وأكتفي بالمراقبة وأكل طعامي في صمت، والجميع يأكلون في صمت، وتتجاذب ملاعقنا أطراف الحديث، وتدور بينهم أوركسترا بقيادة صمتنا.

نقطة الأكل هي الوحيدة التي أشكو منها، لكن كل شيء بخير الحمد لله، والغرفة رغم وحدتي لا أكاد أشعر بوحشتها، لأنني لا أدخلها إلا على النوم، أنتهي من عملي، أطبخ في البيت أو أكسل عن الطبخ، أنزل إلى الشارع أسير فيه مع أحد الزملاء، وأحيانا وحدي إذا تعذّر بأي شيء، ولا أطيق نفسي منفردا أكثر من دقائق، فأجدني أصعد إلى غرفتي وأستعجل الصباح.

وطعم الأكل هنا جيد، لكنه ليس أجمل من طعامنا، الثقافات مختلفة، لا بأس، الجميع يقولون لي سترضى به مع الوقت، فرضيتُ مقدما من الآن، وقسمتُ الطعام الذي وضعته أمي في حقيبتي إلى وجبات أسبوعية، بعطلة كل أسبوع آكل وجبةً منهم، فأشعر بنفسي مسافرا إلى القاهرة على متن «صباع محشي».

المهم، كل شيء يسير على ما يرام، وأشعر من الآن أن قرار السفر كان سليما، بل تأخر عن موعده، ولو تعجلتُ به من البداية لكنتُ مرتاحا أكثر الآن.



(٣)

ثلاثة أشهر،

هل تصدقني إن أخبرتك بشعوري بملل كبير؟ لكنه يهون أمام لقمة العيش، الزميل الذي كنت أتمشى معه مساء، ويعتذر أحيانا، صار يعتذر دائما، ويتهرب مني في العمل كأنه يخاف أن أدعوه إلى الخروج معا ليلتها، وكل مرةٍ يتعلل بشيء، ففهمتُ أنه لم يحبب رفقتي، ووجدتٌّ نفسي محاصرا بنفسي، وأمامي خياران، إما أن أعود من العمل فألزم الغرفة، وحينها سأشعر بالوحشة، وإما أن أعود من العمل فأنزل إلى الشارع، وحينها سأشعر بالوحدة، فقلت لنفسي: سأبدل بينهما.

الآن أكتب هذه الرسالة من مقعد بالشارع، أجل، في كل منطقةٍ حديقة، وبكل حديقة مقعد، وهناك أماكن ليلعب بها الأطفال، وأتذكر العيال، عيال البيت وعيال الشارع، وأقول

آه لو أتوا هنا فرأوا هذه الزحاليق والمراجيح المجانية تماما، لفكوها من أماكنها وباعوها.

كان صعبا عليّ جدا أن أتخيل نفسي أسير وحدي بالليل كالمجنون، كنتُ أرى الشبان يتجولون وحيدين على الكورنيش في القاهرة، فأبتسم بداخلي، وأشفق عليهم، وأستغرب جدا، كيف لإنسان أن «يتفسح» وحده، أو يتمشى وحده، هذه الاختراعات الليلية وُجدت للمشاركة.

لكنني الآن، وبكل بساطةٍ، أقول إنني أتمشى وحدي، وعلى قدر ما يبدو الأمر جنونيا، فإنه بدأ يروق لي، وأشعر أنني أرى نفسي أكثر وضوحا، وأعرفها أكثر، تخيل، كل هذه السنوات ولم أجلس مع نفسي جلسة واحدة، واكتشفت أني كنتُ محروما من نعمة عظيمة، اسمها «الوحدة»، وهي تلك الحالة التي تجعلك مثقفا، وعميقا، كالبهوات.

آه..

ثلاثة أشهر يا غُربة، اشتقتُ إلى العيال، والبيت، وأمي قبل كل شيء، إلى الشارع والطعمية والفول، إلى ضجيج الناس بالليل، هنا الليل يشبه ليل المقابر، والناس فيه موتى، اشتقتُ إلى وجوه الجيران والناس، التي لا يبدو عليها من حزن الأيام

شيئا، كأن الناس يخبئون في مكانٍ ما، وجها رائقا لا يخرج إلا للحبايب كل مساء.

اشتقتُ إلى المصطبة، وآه من قعدة المصطبة، تعبتُ والله من قعدة المقعد في الحديقة، ومن الكرسي في العمل، طبعا ستضحكون علي، وتقولون: «بيخزي العين»، لكن والله أبدا، المصطبة يا ولاد بها سر عميق، سر مخبأ في ارتفاعها، معقول هل كل هذا الارتفاع مبني على طوب؟ لا أعتقد، لا بد وأن بين الحجارة سحرا، يجعل المصطبة باردة في الصيف ودافئة في الشتاء.

قبل أيام سألت البيه المدير: كيف تعيشون بدون مصاطب؟ استغرب السؤال وضحك، وحكى لي عن الأندية، عن الحدائق، عن «الكافيه»، وهي قهوة لكن بنت ذوات، قلت: لا، المصطبة، المصطبة، يعني إذا أردتم الضحك أو المناقشة أو مشاركة الذكريات، هل تفعلون ذلك على الكراسي المطاطة؟ استغرب أكثر، واستغرق في الضحك، وقال إن الأمر عادي، وبسيط، أي شيء يمكن الحديث عنه في أي مكان.

لم أرد معارضته، لا لأنه لن يفهمني، لكن لأنه المدير، وانصرفتُ أحدث نفسي، وقلت سأذهب غدا إلى نادٍ من أنديتهم، وأجالس الزملاء، وأجلب الذكريات ونضحك،

ونجرب، ويا ليتني ما فعلت، كانت أبطأ ساعة في حياتي، جلستُ كأنني على كرسي عزا، وكأن انتظاري كان للشيخ حتى يتم قراءة الحزب، وكل هذه الضحكات مصطنعة، أو مصنعة، كأن كل واحدٍ منهم يفصلها عند ترزي، يقول له أريدها أن تبدأ مرتفعة ثم تنخفض، والآخر يقول أريدها منخفضة ثم ترتفع، وجميعهم يريدون من وراء الكلام شيئا، أحدهم ليتحدث عن مركزه، والآخر عن مكانه، والثالث عن عمله ومكتبه، والرابع عن إنجازاته وزيجاته، والخامس أن لعنة الله على المجلس كله، فتركته وقمت.



(٤)

سبعة أشهر،

أكتب هذه الرسالة متأخرة عن تفكيري فيها بيومين، لأنني لم أكن أستطيع إمساك القلم، وانتظرتُ حتى قويتُ على التركيز والجلوس والكتابة، وكتبتُها لأفرغ ما بجوفي من علامات تعجب واستفهام.

هل جربتَ أن تذهب إلى المستشفى وحدك من قبل؟

أنا فعلتها قبل يومين، أغشي عليّ في العمل قبل أربعة أيام، اصطحبوني إلى المستشفى ومن المستشفى إلى البيت، وقرروا لي إجازةً مرضية، في اليوم التالي اتصل بي المدير وسألني عن صحتي، وبعدها لم يتصل أحد، أمس الأول شعرت بحالتي تسوء آخر الليل، دختُ وسقطت بالمطبخ، وبعد قليل وجدتني قد فقدت الوعي وأفقت، لم أستطع التصرف ولًا القيام، لم أقوَ حتى على الجلوس، وقررت رغم أنفي تكملة إغماءتي إلى أن يأتي الصباح.

وفي الصباح قمت، بعد أن تقيأت في الحمام، وهدأ الألم قليلا، لكن الحرارة كانت لا تنخفض أبدا، قمت كما أنا، وارتديتُ معطفا رغم حرارة الجو، وسلكتُ طريقي إلى المستشفى أستند إلى الجدران، ولم يستوقفني أحد، ولم يسألني أحد، وأتذكر البلد، وأتذكر قانون «الجدعنة» الذي يقضي بحظر ذهاب المرء إلى الطبيب وحده، ولو كان سيحشو ضرسه حتى.

وكان الجميع ينظرون إليّ، وكانوا يجلسون في أماكنهم كأنني عرضٌ صامت في الشوارع بمناسبة اليوم الوطني، ويلتفتُ كلٌّ منهم إليّ ثم بعد مروري من أمامه يلتفت عني، كأنني عصفورٌ شفاف، يحرك الهواء فيشعرون به، ينظرون فلا يجدون شيئا.

وأعود أتذكر كل شاردة وواردة، وأقول آه لو عندنا، لكان اثنان على الأقل يحملانني على كتفيهما، يتحولان في سرعة البرق إلى عكازين على يميني وشمالي، ويتوقف سائق سيارةٍ بالصدفة، ويقول اركبوا، ويتوجه إلى أقرب مستشفى، ويقسمون ألف يمينٍ من ورائي على دفع أجرة الطبيب، ويتعارك ثلاثتهم، فيتقاسمون الأجر والأجرة.

وأكمل الطريق العسير، الذي بدا طويلا أكثر مليون مرةٍ من طبيعته، فلم يكن يفصلني عنه سوى شارعين، لكنه كان ثقيل

الدم، كلما اقتربتُ منه رأيتهُ يتراجع إلى الخلف ويضحك، ويقول: لو شاطر امسكني.

وأرى الجدران التي أستند إليها ترقص، فأتوقف، فأجدها جامدة لا تتحرك، ثم أعود أمشي فتتراقص، وأشعر بالدوار، وأقف خمس دقائق إلى أن يعود اتزاني، ثم أتذكر لعنة البلاد التي لا يوجد فيها مصاطب، وأقول آه لو كان عندنا، لجلستُ إلى مصطبة كل عشرين مترا، وعلى كل مصطبةٍ كان صاحب البيت أو الدكان سيقسم عليّ أن أشرب كوب شاي، فأصل إلى المستشفى معافى.

وأكمل الطريق، وأتعرق، وأشعر بالبرد، وتصيبني الشمس بصداعٍ شديد، وأكاد أسقط، لكنني أقاوم، لأنني لا أريد أن يستعرضوا عليّ مهاراتهم في إسعاف الأجانب، ولا أن يتذكروا فجأة أن هناك مريضا يتوكأ في الشارع، وقد سقط طريح الأرض، ولا أن يفيقوا من سكراتهم فيجدونني في سكراتي، ويتبارى كل منهم في إظهار عرق الشهامة.

وألعن الغربة، هذه هي المرة الأولى التي ألعن فيها الغربة وأذوق طعمها السم، كنتُ أصبر عليها في كل وجبةٍ آكلها، وأقول لعله خير، لا بأس، وحدي وحدي، كأنني سكنتُ في مكانٍ بعيد في بلدي وأقمتُ وحدي فأكلت وحدي، لا تلعن الغربة يا واد عمال على بطال، ولا تحملها ذنبك بلا سبب.

وكنت أصبر على السير وحدي، وقضاء الليل وحدي، والسهر في العطلة وحدي، وأخرج بالعطلة وحدي، حتى كدت أجعل «وحدي» هو اسمي الثاني بدلا من اسم أبي، ومع ذلك كله، كنتُ راضيا عن الغربة، وقلتُ لقمة العيش أهم، ولأن البطون في البلد صبرت كثيرا حتى تأكل ما تأكل اليوم، ولأن عيونهم تمتلئ بالتدريج، ويمسكون بخط الفقر ويصنعون منه حبلا طويلا، يتسلقون به واحدا تلو الآخر نحو الطبقة المتوسطة، ويتزاحمون على الحبل لكنه يحملهم، ويحاولون ألا يسقطوا ما دمتُ أرسل إليهم بعض المال من هنا، والبركة في فرق العملات، كل ذلك لم ألعن الغربة.

ثم مع أيام العمل الثقيلة، ووجه المدير الخفي، ومكر السادة الزملاء الأفاضل، وطيبة الآخرين منهم كانت تصبرني، ومن أجل ذلك لم ألعن الغربة.

ومرضت، ولا بأس، كلنا نمرض، في أي مكان وأي زمانٍ يدخل القدر حاملا لنا مفاجأته وراء ظهره، فنقبل به راضين، حامدين الله على تكفير الذنوب أولا بأول، ونمرض، ونأخذ دورة المرض الطبيعية، ثم نقوم بالتدريج أفضل من ذي قبل.

ومرضت، ولم يسأل أحد، ويعلمون أنني أقيم وحدي، وقلت لا بأس، لعل المانع خير، ولعلهم سيفاجئونني غدا بزيارة جماعية، ولم يحدث، وقلت عساهم بخير ولم يموتوا كلهم إن شاء الله دفعةً واحدة، ولم يسألوا، لا بأس، فالناس تنشغل عن أقرب الأقربين، فما بالك لو زميل العمل.

ومرضت، لكن أن أذهب إلى المستشفى وحدي؟ معقول؟ وخرجتُ من المستشفى بعد أن استغرب الطبيب حالتي وأشفق على وحدتي فأنقذني وأعطاني درسا في استدعاء الإسعاف حتى لو كان بيتي بجوار المستشفى بالضبط، وشعرتُ وأنا عائدٌ في الطريق أن الأمر يقتضي زيارةً لمستشفى الصحة النفسية بالمرة، لأتأكد من أن أحدا لا يذهب مع أحد للمستشفى، ووددت لو كانت الصحة تساعدني لأذهب إلى مركز الشرطة، فأبلغ عن المواطنين الذين يسيئون لسمعة البلد عند الأجانب، وأقدم فيهم بلاغا بتهمة «قلة الأصل».

وغدا سيتصل بي المدير مجددا، ليس من باب الاطمئنان على صحتي، وإنما اتصال الرئيس بالمرؤوس، ليسألني وهو يضحك عن مدى قدرتي على القدوم إلى العمل، وذلك طبعا بعد شرحِ تأثر العالم بغيابي، واتساع ثقب الأوزون لأنني في

إجازة، وخراب مالطا بسبب مرضي، وأنه خُصم منه ثلاثة شهور لأنني غبتُ ثلاثة أيام، وهو ضحى بكل ذلك من أجلي، ثم سيسألني القدوم غدا، وتقديم عرض سخي بأن تأخذني الحافلة من أمام البيت لا من أول الشارع.

ولعنت الغربة، وكرهت اليوم الذي خرجتُ فيه من المطار، وتذكرتُ مدام عفاف في الدور الثالث، وقلتُ كل هذه الأوامر والمستندات والأوراق لآتي إلى هنا وأتجرع كل هذا المر؟ فشتمتُها في سري، وقضيتُ الطريق بين الحمد لله الذي عافانا، وبين الله يلعن الغربة.



(٥)

سنة أولى غربة..

أول درس: الزمن في الغربة يمر أسرع من الزمن في بلدك بعشر مرات.

ثاني درس: عدد الدروس في الغربة لا يحصى.

آه يا زمن، من كان يتخيل أن أخرج من جهنم الوطن إلى جنة الغربة بهذه السرعة، ثم أعود بعامٍ أشكو جنان الغربة إلى جهنم الوطن؟ لم أكن أعرف أن هناكً مقابلٌ آخر سأدفعه أكثر مما دفعته لقدومي إلى هنا، وهو مرور الأيام بهذه الطريقة، وأنا في غفلةٍ عنها، أتذكر كيف مرت أول ساعات، وكيف مر أول شهر، وكيف جرت بقية الشهور بعده، كأن الفارق بين الأسبوع الأول والأسبوع الخمسين يوم وليلة.

في الغربة، يتعود المرء الأشياء الجديدة، ويجرب المشاعر كأنها يختبرها بعد عطبٍ طويل، وكأنه يولد من جديد، فيصرخ

ليفتح مجرى التنفس، ويرفص ليحرك القدمين، ويرقص ليحرك الذراعين، فيجد القدم ترتطم بالأرض، والذراع يلوح في الهواء، والصرخة تموت بداخله، والمسؤولية على عاتقه لا تتحمل رفاهية الطفولة ولا سذاجة المراهقة.

وتجد هناك أناسا لم تكن تتخيل أن تقابلهم، ستجد ولاد الحلال الذين تدعو لك أمك بهم دوما، وتجد الآخرين الذين تدعو أن ينجيك منهم، ستجد في كل خطوةٍ سلامة، وفي كل سكة حبيبا، لكنها مجرد خطوة وتنتقل إلى ما بعدها، ومجرد سكة ستنشغل في سكة أخرى غيرها، ويمضي العمر، ويمر الزمن، ويمتلئ الجيب بينما يفرغ الصدر، وما يمتلئ بالجنبين يأخذ مما بينهما، وأنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها.

ثم تعرف الله أقرب من أي وقت مضى، معرفةً غير التي وجدتها في الخطَب وسمعتها من المنابر، ومعرفةً غير التي عرفتها من أهلك وغرستها فيك أمك، ومعرفةً غير التي تعلمتها في الكُتاب وحفظتها في الكِتاب، معرفةً أقرب جدا، خصوصية جدا، تجعلك تحكي له كل أسرارك، وتقسّم تحت عينه راتب الشهر، وتدخر في رعايته ما يزيد على النفقات، وتحتفظ بسر يعلمه هو في أن بالرزق بركة، وتعرفه في ساعات الليل التي تقضيها وحدك، وتسأله عن الحل للمشكلة الأخيرة.

وتعرف الله في شيء غير الجامع، وتراه في أماكن غير السماء، وتجده في المشاوير الخاصة، وتبتسم بين يدي رحمته حين يكفي المال لقضاء المصلحة بالضبط، وحين يتعقد الأمر من حيث لا تدري، ثم يتيسر الأمر من حيث لا تدري، وتراه في القرش على القرش فتجدهم عشرة قروش لا قرشين، وتراه في نجاتك مما أودى بحياة غيرك، ويراك خائفا فتراه يحرسك.

وفي الغربة تعرف نفسك أكثر من أي وقت مضى، أو تتعرف بنفسك، أهلا، ما اسمك؟ كم عمرك؟ كيف حالك؟ ماذا تفعل؟ لماذا تفعل؟ كيف تفعل؟ آسف إن كنت فضوليا زيادة على اللازم، أجل، لا لا لستُ محققا، تشرفتُ بك، على الرحب والسعة.

وفي الغربة تبكي كما لم تبكِ من قبل، وتضحك كما لم تضحك من قبل، وتعرف طعم كل شيء بالتجربة لا من وصفات الطبخ، وتأخذ التوصيات لكنك لن تعتبر حتى تجرب بنفسك، وتكف عن سؤال الناس وتذهب لقضاء كل شيء من دون طلب من أحد، وتكون أول نصيحة من المغتربين القدامى إلى المغتربين الجدد: افعل كل شيء بنفسك.

وفي الغربة تعرف معاني لم تتخيل نفسك فيها من قبل، ستعرف الحب الذي كنت تراه «كلام ماسخ»، وتعرف الشوق

الذي كنت تراه «هيافة»، وتعرف الوطنية التي كنت تراها مبالغة، وتعرف الصبر الذي كنت تراه مستحيلا، وتعرف الدموع التي كنت تراها «للولايا»، وتعرف نفسك التي كنت لا تعرفها.

عام مر بكل ما فيه، وهناك على الجهة المقابل كبر العيال عاما وكبرت أمي عاما، وأنا ما زلت واقفا مكاني، في العمر نفسه، وفي التاريخ نفسه الذي يسمونه «تاريخ المغادرة».



(٦)

عامان،

والشوق -لا شيء غير الشوق- يكويني،

عامان مرا وأنا أزداد شوقا، لم يعد يعنيني شيء من المال أو الوظيفة، ولم يعد يهمني المركز ولا المنصب، ولا تغريني الحوافز ولا المدخرات، أنا أريد رؤية الأحباب فقط.

كثيرون وُلدوا، كأن العامين اللذين غبتهما كانا عشرة أعوام، وأصبح المولود يمشي، وأصبح العيال في ابتدائية وإعدادية، وأصبحت أصواتهم في الهاتف أكثر خشونة، وأصبحت البنات ذكيات، وأنا هنا في مكاني، في غرفتي، لم يتحرك بي الزمن بعد.

أشتاق والشوق حراق!

أشتاق وعلمني الشوق الكتابة، فأكتب لكم كلما وجدتكم توقدون صبري بالغياب، وأسألكم في السطور أن تسامحوني

على الغياب، وأشتاق إلى رؤيتكم تكبرون أمامي، لا رؤيتكم فقط في وقت مستقطع من مباراة العمر، وأشتاق إلى تقبيل عيونكم واحدا واحدا، وأشتاق إلى المصطبة وأهل المصطبة، وأنا أعلم أنه لو مر عشرون عاما ستظل المصطبة مكانها، ويظلون جالسين فوقها باستثناء الراحلين الذين يحل عيالهم مكانهم، لتستمر الحكاية.

وأشتاق إلى السير في الشارع فأجد الكل يرفع يده بالسلام، كأننا بلد جميع أهلها وزراء، يضرب الجميع للجميع فيها تعظيم سلام، وأشتاق إلى أن أمرض فأرى وجوه الأحباب مصطفة أمامي، وأرى العيون متطلعة إلى وجهي، وأرى الأكتاف في الأكتاف متحلقة حولي، وأرى أمي تعد الشاي فوق النار، وأرى الجميع يزور الود لا يزورني أنا شخصيا، يزور المعنى لا المبنى، يزور آل البيت لا البيت نفسه.

وأشتاق إلى ساعات الصفا، وإلى الضحك حتى الفجر في ليالي العطلة، وإلى النساء متحلقات في الطرف المقابل يتسامرن، ويأتين بسيرة الرجال واحدا واحدا، ويستثنين منهم الرجال بحق في نظرهم، ويأتي الرجال بسيرة صنف النساء كله من دون استثناء، ونضحك ونحن ننظر تجاههن ونقول: «قنبلة تاخدكو».

وأشتاق إلى الخناقات التي يتجمع فيها أهل الشارع، وننتهي بعد طول شجارٍ إلى أننا جميعا أولاد عم، وأنه لا غريب في الشارع ما دام يسكنه، ولا فرق بين من يسكن هنا منذ ألف عام أو من يسكن منذ أسبوعين، ولا فارق بين صاحب بيت بدورٍ واحد وصاحب بيتٍ بخمسة أدوار، و«تعالوا كلوا عشان يكون عيش وملح».

يقولون لي إن كل شيء تغير، وإن الأشياء التي أتخيلها وأشتاق إليها لم تعد موجودة، وأنا أقدر أن الزمان يسير، لكنهم لا يقدرون أنني أسير زمانٍ مضى، ولا يراعون شوقي إلى ماضٍ أود الهروب إليه من حاضري المسحول ومستقبلي المجهول.

وأقول: عامان مرا، وما زلتُ واقفا مكاني، أشد أحزمتي على حقائبي، لأجد البلد في اللحظة التي أعود فيها، هو ذاته في اللحظة التي تركتُه فيها، ينتظرني، لم يرحل.



(٧)

إلى الأحباب،

وصلتني رسالتكم الأخيرة بخصوص مرض الحاجة، أعطاها الله الصحة والعافية وطول العمر، وفور وصول الجواب أبلغت مديري بضرورة النزول، وأخذت إجازة لمدة شهر، وحجزت أول تذكرةٍ بعد أسبوع من الآن.

المهم، أبلغوها بقدومي، أعلم أن هذا الخبر وحده سيجعلها تقوم كالرهوان، أمي ولا يعرفها أحد غيري، ولا تخبروها أنني أعرف جيدا، عن كونها «بتدّلع»، لآتي، وأنا والله لم أتأخر كل هذا إلا لأعود ومعي ما يفرحها، وتجد ابنها في مركز تفتخر به، ويرفع رأسها بعد سنوات الشوق التي دفعتها، ومن قبلها سنوات التربية.

قبلوا لي يديها، لا أستطيع الصبر حتى أعود، وقبلوا لي رأسها، وحنّوها، أمي تحب الحنّة أكثر مني، وتعشقها أكثر شيء بعد أبي، رحمه الله، قولوا لها إنني سآتي ومعي لها

أجمل هدايا، غير هدايا الأقارب وأهل الشارع، هي وحدها لها حقيبة كاملة، فقد صبرت وحان وقت «الرحرحة» كما تحب أن تسميها.

أسبوع فقط بإذن الله، وقلبي يسبقني، وأشواقي تزف إليكم رسالتي، وقبلتي على رأس كل منكم، عدا أمي، فقبلاتي لأقدامها أولا.

وصحيح، قولوا لها إنني سأفي بوعدي، قلت لها: بكرة أكون باشا وحين أعود لن تعرفين ابنك من النزاهة التي سيصير فيها، وقد كان، ومن الآن اتفقت مع سيارة تاكسي، ستأخذني خصيصا من أول المطار إلى باب البيت.

سلاماتي الحارة.



(٨)

يلعن أم الغربة يا حاجة!

يوم!

جت على يوم؟

فرقت يعني سبت من الحد؟

يوم واحد؟

دانا كنت بعد الأيام عد!

قالوا: تعبت..

قلت دي أمي وعارفها..

لما تشتاق لي بتدلع!

فأتفاجئ إن الشدة بجد؟

ولا كنتِ ساعتها متمايصة؟

ولا مدلعة لاجل ما أستعجل؟

ولا أحجز بعدين تتأجل؟

وخلاص جايلك..

متخيل حضنك وعمايلك..

فالقى اللي ف بالي.. بينهد؟

على يوم يما؟

ساعتين بالظبط!

مش عارفة تقولي لملك الموت:

الواد ابني طيارته الآن؟

يوصل بعدين تيجي من بعده

في ميعاده وعلى نفس العنوان؟

على يوم يما؟

طب كنتِ تروحي بعد الضمة!

على يوم يما..؟

وباعتلك أشواقي عربون..

وقلت هكون..

رغم الزحمة..

وبشرفك يا نبع الرحمة..

في خلال أسبوع تحت رجولك..

وكتبت ووصيت يقرولك..

وخلاص هاجي..

فساعتها تقعي من طولك؟

ويقولوا خليك؟

جنازتها طالعة من امبارح..

مش واقفة عليك!

وخلاص فاتَك..

ويقولوا: الباقي في حياتك؟

يرضيكِ يما؟

بنت الكلب الدنيا الساخرة..

أحجز طيارة من الفاخرة..

وتكوني قصادي في المكتب..

حاجزة طيارتك للآخرة؟



(٩)

ست سنوات،

وأنا ألعن الغربة ولا أتركها، وأنا متناقض وأجمع المتضادات عندي، وأنا الشيء وعكسه، والشخص نفسه وعكسه، ولا أدري ما تبقى فيّ من وطنٍ ولا ما ترسب فيّ من غربة، ولا أعرف الحنين من الحزن، ولا الأيام من الأشهر، ولا المال الذي جمعته من الأرواح التي فرقتها.

ست سنوات،

وأنا هنا، تأكل جسدي الليالي وتسفك دمي الذكريات، ولا أكاد أعرف من أنا، وتذكرني الرسائل بسذاجتي، وأقف أمامها مذهولا، من هذا الذي كان يتغزل بالمطار ويريد الهروب؟ من هذا الأحمق الذي آثر المال على الإجازات؟ وأحب أن يفاجئ أمه بالعودة، ففاجأته بالرحيل؟

ست سنوات،

والصغار يكبرون، والبنات يتزوجن، والجيران يرحلون، والكبار يتوفون، والشارع يتغير، والبلد يتحول، والزمان يدور، وأنا الثابت الوحيد في معادلةٍ كل ما فيها متغير، وأحسب المسائل، وأحسب الأعمار، وأحسب الراتب، وأحسب الهدايا، وأوضب حقيبة السفر، وأربط حزام الأمان، وأفك حزام الأمان، وأقرر تأجيل الرحلة، لا لشيء إلا لأنني لا أعرف مَن الذي سيستقبلني في المطار، ولمَن سأعطي هذه الهدايا؟

ست سنوات،

وأنا أعيش هنا بنصفِ إنسانٍ فقط، ونصفي الآخر هناك، ولا الذي هناك قادر على الموت، ولا الذي هنا قادر على الحياة، ولا أنا أنا، كل شيء بداخلي تغير، وأنا الثابت الوحيد، بالقميص نفسه، والبنطال نفسه، والبدلة المكوية، جالسا في مكتبي، أراقب حجوزات الطيران، ولا أستطيع أخذ القرار.

ست سنوات،

وأنا لا أعرف ما الذي أخذته من سنوات العذاب وهل تبقى أحدٌ ليكون بانتظاري، وهل إذا رجعتُ سأجد المفتاح الذي معي يفتح الكالون الذي تبدل؟

ست سنوات،

وأنا عالقُ بالمنتصف، لم أحصل على أي شيء، رغم ظني الحصول على كل شيء، تركتُ الأهل والأحباب لأجلب لهم العز، وذهبت إلى العز فرحل الأهل والأحباب، أي ذل أكبر من ذلك العز يا ولدي؟

ست سنوات، وأنا أريد، ولا أستطيع، أريد أن أنهي هذا الكابوس الذي تنكر لي بهيئة حلم جميل، حتى إذا دخلته أسرني، وأغراني، وتخلل أوردتي كالمخدر، وعزلني عن الدنيا، وربض على صدري كالجاثوم، أراقب الوطن من بعيدٍ وأريد أن أقفز، أريد أن أجري تجاهه، أريد أن ألحق الصغار قبل أن يكبروا، والكبار قبل أن يغادروا، لكن الجاثوم يكبلني، ويجعلني أدرك كل شيء، ولا أدركه.

ست سنوات،

من اليومِ الذي قالت لي أمي فيه: لا تتأخر، وكانت رسالتها واضحة، ثم حين أردت العودة متأخرا، تركت لي مع ملك الموت رسالة، تقول فيها: لا تأتِ. ورحلت.

ست سنوات،

ولا أعرف ما الذي جنيته، وما نوع الثمار، وما فائدة الحصاد، وما معنى أن تكون حقيبة السفر ممتلئة ومحاجر عيني فارغة، وما معنى أن أرسل الهدايا ولا أرسل نفسي معها، وما معنى

أن تموت أمي في العباءة التي بعثتُ بها إليها، ولا تموت في حضني، وما معنى أن يعرفني الصغار صوتا وصورة، ولم يلمسوا وجهي في حياتهم مرة.

ست سنوات،

وأنا أؤجل جلسة المحاسبة إلى وقتٍ لا أعرفه، وأخاف من المحاكمة لأنني أقر بجريمتي، ويقول المحامون إن أخف درجات العقوبة قد تكون الإقامة الجبرية في بيت جديد، وإن أثقلها هو أن أعود فلا أجد مكاني في البيت القديم، سأكتشف فجأة أن الأمور جرت من دوني لسنواتٍ طويلة، فما الفارق الذي ستحدثه عودتي حتى أجد الدنيا متوقفةً لأجلي؟ وما الجديد الذي قد يحل إذا حاول القديم أن يعود؟ وهل سأشعر بالأشياء نفسها كأن شيئا لم يتغير؟ أم ستكون الغربة قد تركت بي آثارا أخرى، لا تُكتشف في الغربة نفسها، وإنما تكتشف بعد العودة منها.

ست سنوات،

والأصدقاء يجتمعون من غيري، ويقولون إن مكاني فارغ، وأراهم من بعيدٍ يسدون خانتي بالتدريج، من حيث لا يعلمون، وحين أعود، ستكون أحجامهم مختلفة، وأقدامهم ممتلئة عن ذي قبل، وسيستغرقون وقتا ليفسحوا لي، وأجلس

بينهم، لكن وجودي لن يعود كما كان من قبل، سأضطر إلى إجلاس نصفي، وصرف نصفي الآخر كي لا يلاحظوا أنني تحولت إلى شطرين.

ست سنوات،

كافيات لألعن الغربة، وألعن الوطن الذي اضطرني إلى الغربة، وأعود أعتذر للغربة وأعود أقبل رأس الوطن، وأدفن في الغربة نصفي الوطني، وأدفن في الوطن نصفي المغترب.

ست سنوات،

وحان الوقت، المتأخر جدا جدا، لحجز تذكرة العودة، بحقيبة واحدة، مقابل ست حقائب سافرتُ بهن في المرة الأولى، سأعود بحقيبة واحدة فقط، أحمل فيها وحدتي وخيبتي، وأرمي منها تجاربي وحكمتي، وأعود بها خفيفا على متن الطائرة نفسها، وتسألني المضيفة نفسها عن أمتعتي، وأضحك للمضيفة وتضحك لي، وأهمس لها في أذنها: «بعمري».



(١٠)

الواحدة ظهرا،

مطار القاهرة الدولي..

صالة القادمين..

.


رسائل عثر عليها
تحت وسادتك

(١)

الثانية بعد منتصف الليل،

لا نوم، لا رحمة من التفكير، رغم جسدي الذي اشتكى طوال اليوم من الإجهاد، ودفعني للنوم بالمحاضرة، والنوم بالحافلة، والنوم بالعمل، والنوم أثناء العودة إلى البيت، يدعوني الآن للاستيقاظ، يقول لي لن أدعك ترتاح، استيقظ قليلا، كفاك نومًا، أوضح له أنني لم أنم بعد، فيخبرني بأن هذا الأمر يخصني وحدي، أما ما يريده هو فله الحق فيه بغض النظر عن تعبي أو راحتي.

أقول لعقلي: تفضل، هات ما عندك، قسّم وسمّعني، فيصمت، فأحاول النوم، فيعود يثرثر مجددا، وحينها أرمي البطانية في جهة، واللحاف في جهة، وأدع السرير كله وأنا أسب النوم واليقظة والعمل والجامعة والمواصلات، ثم أجلس بالشرفة أشرب كوب شاي ثقيل، يعزّيني في مرارة الليل.

ثم يا أنا، يا عزيزي الإنسان الجميل الذي أملكه..

سيستيقظ الناس في الصباح، ويرون عيوني مسودَّة، ووجهي كالحا، فيغضون النظر عن كل ذلك، ويدخلون بعدساتهم المكبّرة إلى ثغري مباشرةً، ليروه ضاحكا، فيغمزون لي، ويقولون: «يا سيدي على الروقان»، وأنا في سري أميل لأن أدعو بأن يرزقهم الله «الروقان» الذي أنا فيه، لكن أشفق عليهم، فأتراجع عن الدعاء، وأكتفي بابتسامةٍ صفراء، أرجوهم أن يفهموا منها كل شيء.

ألن ننام؟ لم تكن قصتي لك مؤثرة؟

دعنا نجرب قصصا أخرى، لننام فجأةً بلا سابق إنذار، ونجد أنفسنا في الصباح نائمين بالكرسي الذي نجلس عليه، نرتعد بردا، وتخرق رماح الشمس عيوننا الجميلة، وتقول كلاكسات السيارات بصوتٍ واحد: استيقظوا يا عالم! لستم في ضَيعة أبيكم حتى توقظكم الديوك وتفطرون على حليب.

عزيزي الأرق،

هلا تركتني الآن أرتاح قليلا؟ دعك من خفة دمي وحسن صُحبتي و«سهرايتي» التي لا تمل منها، دعني أضع رأسي في الوسادة، لأجرب شيئا طبيعيا يجربه نصف العالم حالا، تخيل نفسك تحرمني من شيء ينعم به المليارات الآن!

كم ذكرى تريد أن تفتش عنها كمقابلٍ للنوم؟ كم وجعًا تريد أن تقلبه علي؟ كم جرحا تريد أنً تضع فيه إصبعك لأصرخ وأقول: آسف، لا أريد النوم؟ كم شخصًا يتحايلون عليك في هذه الساعة وأنت لا ترحمهم؟ هل من الطبيعي أن تحرم جسمي من النوم في ميعاد النوم، ومن اليقظة بموعد الاستيقاظ؟ كم ليلةً يتحمل فيها المرء ذلك قبل أن يموت؟

ستذكرني بالفتاة التي أحببتها وافترقنا، أعلم، وبالفتاة التي يبدو أنني سأحبها ولن نفترق، أفكر، ستذكرني بالرجل الذي قال لي كلمةً اليوم لن أنساها إلى الأبد، وبالرجل الذي قال لي كلمةً حلوةً لكني لا أستطيع تذكرها، ستذكرني بصاحبي البعيد، وبخصمي القريب، ستذكرني بعدد الجنيهات المتبقية بجيبي لآخر الشهر، وبالوجبة التي كانت أثقل من ميزانيتي لكن «نِفسي فيها»، ستذكرني بأمي، وبسرير أمي، الذي كنتَ لا تجرؤ على الظهور لي، وأنا مختفٍ به.



(٢)

دفتري العزيز، اليوم كان سيئا جدا، كان طويلا أكثر مما ينبغي، شعرت بالغثيان أكثر من مرة، وكدت أن يُغشى عليّ في محطة الحافلات.

في الجامعة شعرتُ للمرة الألف بالوحدة، يومٌ جديد لم أجد فيه صديقا يشبهني، ولم تلتفت إليّ صديقةٌ وتقول لي: ما بك؟ لم يسألني أحدٌ عن حالي ولا غرابة شكلي، لاحظتُ نظراتهم إلي، لكن أحدًا لم يتقدم لسؤالي، وأردت بشدة أن يعبأ بي أحد، حتى كدت أعطيهم الجواب من دون سؤال، وشعرت بأنني سأمشي بينهم وأقول: اطمئن أنا بخير، لا لا، لا داعي للقلق عزيزتي، المهم كونوا أنتم بخير، علاج؟ لا، الأمر أبسط من ذلك صدقني، لا تطلب الإسعاف، مستشفى؟ لا إطلاقا والله، ساعة وسأكون بخير.

في العمل قالوا لي إنني يبدو عليّ الإرهاق، عيناي كأنهما جمرتان، ويداي باردتان جدا، ورأسي في مكانٍ آخر، لكنهم

لم يعرضوا عليّ ترك الأشغال الشاقة، فعجلةُ الإنتاج أهم من كل شيء، أتفهم ذلك، وأقدر صراحتهم.

في الحافلة تعصب عليّ السائق، لا أدري ما السبب، لكن الجميع نادوني لأذهب وأدفع الأجرة، فيبدو أني نسيتها، نظر إليّ في المرآة وقال: شباب مسطول! لم أستطع الرد، في يوم آخر أيضا لم أكن لأرد، لأنني أخاف، أو لأنني كما أحب أنْ أبرر لنفسي: لا أحب المشاكل.

لحسن حظي وجدتُّ كرسيا فارغا، في نادرةٍ لا تحدث عادةً، فلديَّ اعتقادٌ بأن الجالسين على الكراسي وُلدوا ملتصقين بها، وهم على كل حالٍ ليسوا بشرا مثلنا، ولا مواطنين مسحولين، وإنما يعلمون في جهةٍ لا نعلمها ربما، تسمح لهم بالجلوس يوميًا في المواصلات! عشنا وشُفنا!

جلستُ على الكرسي، وأسندت رأسي إلى زجاج النافذة، وعدت إلى الخلف لألصق ظهري تماما بالكرسي، لأنني لا أصدق أنني جالسٌ به، يبدو أنني رحتُ في نومٍ صغيرٍ، في غفوةٍ قصيرةٍ، إلى أن أفقتُ على لغَطٍ وصوتٍ في طريقه للارتفاع، قلتُ هكذا هي مشاكل الواقفين في المواصلات، لا تنتهي، ولا يتركون الجالسين يرتاحون، وعدتُّ أسند رأسي إلى الزجاج، لكن يد أحدهم كادت تخلع كتفي، بقصد لفت نظري إلى شيءٍ ما يحدث حولي.

كان الرجل واقفا وهو في قمة غضبه، أشار إليّ بالقيام للرجل الكبير، قمتُ فورا، والشيخُ العجوز يقول بصوتٍ يقصد أن يُسمعه للجميع: شباب هايف!

وأنا والله يا حاج، تشهد عليّ كراسي المواصلات، أرضية كل ميكروباص، ونافذة كل حافلة، وشباك كل مترو، وسائق كل ترام، بأنني في حياتي كلها جلستُ مرتين أو ثلاثة بالمواصلات، ولم يحدث أن وجدتُّ عجوزا ولم أقم له، ولا سيدة، ولا فتاة، ولا حتى صغيرا أعتقد أنه لن يقوى على الوقفة، ولو جاءت ذبابةٌ وأنا جالسٌ لقمتُ لها، قلتُ عساها مرهَقةٌ من الزنّ طوال اليوم.

ثم تشتمني، وأنت لا تعلم حال الشاب الهايف الذي هو أنا، لأنني لم أقم لك، من فضلي، بعد إذني، لو سمحتُ؟!

إلى أن وصلتُ أخيرا إلى البيت، صافحتُ الباب، استقبلني الفراغُ بعناقٍ طويل، سألتني الجدران: ما بك؟ أفسح لي السرير مكانا للجلوس، أعدَّ لي الخلاطُ كوبًا من عصير الليمون، ألحّت علي الوسادة أن أخبرها ما الذي جرى، مسحت كفي دموعي، وقال فمي: لا بأس، وضعتني قدماي على السرير، وأطفأ لي المصباح الضوء، وأغلقت الأُكرة الباب، وقالوا لي جميعا: تصبح على خير.

(٣)

اليوم قال لي أحد الأصدقاء: أنا بجانبك. لا أدري ما الذي يمكن أن تحدثه كلمةٌ بإنسانٍ بالغٍ راشدٍ عاقلٍ، إلى هذه الدرجة.

كنت يائسا إلى الحد الذي يجعل الإنسان زاهدا في السمع، غير راغب في الكلام، يود لو وُلد أبكما وأصمّا، كي يكون العذر مقدما من دون حاجة إلى الشرح المعقد، إلى أن قال لي أحد الأصدقاء أنه هنا، فشقت كلماته أذنيّ، وسكنت ما بينهما في قلب رأسي بالضبط.

قلتُ: سبحان الله! الكلام بسيط، وسهل، وجميل، ومجانا، فلماذا يعزف الناس عنه؟ ولماذا لا يقولونه ما دام غير مرهق ولا يُأخذ منهم اشتراكا عليه آخر الشهر؟ ولماذا لا يفصحون عنه إلا بعد عذابٍ طويل بين لسانِ القائل وأذن المستمع؟ ولماذا يواصلون حبسه على ذمة التحقيقات، ولا تهمة واحدة موجهة إليه غير أنه معسول، وغير مطابقٍ لمواصفات العصر الحالي؟

وأسأل نفسي عن عدد الذين يعانون من الصمم الإجباري حتى الآن، بسبب الذين يعانون من البكم الاختياري، يغلقون على ألسنتهم بالضبة والمفتاح، ويشدون سلكا شائكا على أفواههم، ويعلنون حظر التجول لشعب الكلمات الذي يقبع داخلهم، ويرهبهم من الهروب من هذا الخندق المخيف، يقول لهم: لو خرجتم لن تعودوا، وستسكنون إنسانا آخر، لكن بدلا من الحياة في الحلق الدافئ، ستذوقون المر في آذان إنسانٍ آخر، ثم في عقله، وآهٍ لو رمتكم الأقدار في قلبه، جهنم والعياذ بالله!

لكن بعض الكلمات تخرج، أفرج صديقي عن إحداها اليوم، وسكنت الكلمة أذني، وعقلي، وقلبي، وأخرجتني من وحدتي المظلمة، وهي الآن في مكانٍ آمن أفضل على كل حالٍ من صدره المكتظ بالكلمات، في ظروفِ حبسٍ غير آدمية، ولا تليق بالكلمات ذوات المستوى الرفيع.

وكان اليوم لطيفا، شعرتُ أنني لستُ وحدي، وأنني في أي وقتٍ سأستطيع أن أحكي لذاك الشخصِ القريب عن الذي يؤرقني، ساحكي له عن سوء اليوم أو حسنه، عن النوم أو الأرق، ولن أطلب منه الحل، ولن أطلب التعاطف، ولن أطلب الشفقة، وإنما كل ما أطلبه أن يقول لي: ممم، أيوة، أكمل، تمام.

وعدتُّ أسأل مجددا، وأتيه مجددا، وأمشي بين الناس، أود أن أقول لكلٍّ منهم: ها، أفرج عنها، الآن ستخرج، اقتربت من لسانك، إنها في طريقها إلى أذن الذين ينتظرونها، حمدا لله على السلامة وصلت بخير.

وأنت سيدتي، أجل، الكلمة؟ لا، لا تخجلي من صديقتك، أخبريها، نعم، قولي لها كل هذا، تخافين ردة فعلها؟ لا تخافي، العتاب الخفيف سيهون الأمر، أجل، أعدك أنها ستقدر ذلك جدا.

ماذا تريد؟ لا أسمعك، أن أخبرها بدلا منك؟! وأنت؟ ستنتظر هنا، لا، تفضل أنت، الأمر يخصك وحدك، أجل، فكرتَ طويلا وأخذت القرار؟ ستفي بوعدك؟ عهدك؟ أجل، على بركة الله، تفضل، الآن هي تسمعك بوضوح.

قل له صباح الخير، لا تتركه يسرح بخياله ولو لحظة أن هناك سببا وراء عدم إلقائك السلام عليه، لا تُشعره بأنه لا يُرى، قل له كيف حالك، ابتسم له، أجل، إنه رجل طيب.

كان اليوم لطيفا، حين أفرج صديقي عن إحدى الكلمات المحبوسة بداخله، ورفرف قلبي لحريتها.



(٤)

الثالثة صباحا،

تحت هذه الدموع التي بللت الورقة أكتب، لأوثق المكان والزمان والحدث، ولأذكر نفسي كلما نسيتُ أن الرجل يبكي، بأنني بكيتُ من قبل.

السبب؟ اللحظة التي تبكي فيها لا تكون عارفا بالسبب بالضبط، هناك شيء ما يطفو على السطح ويقول لك: أنا السبب، لكنها تكون في الحقيقة تراكمات طويلة، الليلة بكيتُ بحُرقةٍ، بكل جهدي بكيت، بأقصى طاقةٍ عندي للصراخ كتمتُ صرختي، وأخرجتها من تجت جفني دموعا غزيرة، ومع كل عَبرةٍ تسقط، أطفو على السطح أكثر، وأقول بنفسي لنفسي: أنا السبب.

لا يهم، كل ما يهمني الآن هو أنني أتخفف من حمل ثقيل، ومن انفجارٍ مكتومٍ كاد يقتلع عنقي، ومن تسربات كثيرة وكبيرة وسوداء، ومن تراكمات صغيرةٍ لا تُرى بالعين

المجردة، وأطير أكثر، كمنطاد كان عليه أن يلقي كل ما فيه ليرتفع، ويصل إلى السماء.

الآن أبكي يا أنا،

وأنا لا أملك في نفسي أي شيء مني، لا أريد أن أتحكم بمجرى الدموع ولا مقدراها، أريدها كلها أن تشق خدَّيَّ إلى أن تجف عليهما، وقد أفرغت كل ما لديها من حاويات.

عيوني العزيزة،

أشعر بك، أشعر بكم الحرج الذي أنتِ فيه الآن، تقولين آسفة لم أستطع التماسك أكثر، معذرةً، لم أقدر على الصبر حتى النهاية، وهأنذا أخبرك بأنك، على العكس، تجددين البدايات، وتضعين حدا للتحمل الأحمق، الذي يجعل مني حلة ضغط، على وشك الانفجار.

حلْقي العزيز،

الآن أراك كأنك في خضمّ المخاض، كأنك في عملية ولادة، تنتفخ عروقك، وتُندى بالعرق، وتشعر كأنك على وشك الموت، لكن اطمئن، هذه علامات الحياة.

صدري المسكين،

أعلم أنك كنتَ مثقلا بالكثير، كنتَ متحملا عشرات الساعات من الهم، ومئات الأطنان من الصمت، وآلاف الأميال من السير وحيدا، لكنك الآن تتوسع، تستطيع أن تتنفس بهدوء، تجهش لتفرغ ما فيك من أثقالٍ على دفعات، تنتهي كلها وتختفي بعد قليل، وتسترخي ضلوعك، وتنتظم دقات قلبي بداخلك، وتعود معافى من جديد.

عقلي المتعَب،

الآن تسيل الأفكار مع الدموع، وتتبخر الحمم مع البكاء، ويهدأ نشاط فصوصك بعد جهد، وتفكر في اللاشيء، وتسرح في أماكن أفضل من التي كانت مخزنة فيك، وتقرأ وجوها غير التي تراها كل يوم، بعد دقائق ستجد في الحلم أشياء ألطف، فكرتُ فيها من أجلك.

ورقتي المبللة،

احفظي ما بكِ جيدا، أبقِ الدموع ما استطعتِ حية، وخبئيها من الجفاف.



(٥)

صديقي، لقد وصلت..

صاحبي الذي بين جنبيّ، الذي أحتفظ به هنا في هذه الغرفة الصغيرة، بعيدا عن عيون الناس، وأُسرّ له بما حدث في يومي، حين أخلع عني قناع الخارج، وأبقى أخيرا وحدي، متجردا في مرآة من أربع حوائط؛ أما بعد..

أود أن أخبرك بأن اليوم كان جميلا، لأنني حصلتُ على شيء طالما تمنيتُه، ووقعتُ عقد عمل ثابت، والراتب، تخيل؟ سيجعلني آكل حتى أشبع، وأرتدي مًا يدفئني، و«أدلع» نفسي بعد تقشف طويل.

الآن، أستطيع أن أقول أنني، بفضل الله، وصلت، ولا يعنيني ما سيقوله الناس، ولا ما سوف يظنونه بشأني، لن تعنيني مباراكتهم حتى، ولا تمنياتهم الحارة بالتوفيق، ولا كلماتهم المزخرفة بالابتسامة وانغلاقة العينين، وتكرار الكلام ذاته في أساليب مختلفة؛ «والله كنتَ تستحقها»، «تخيل كنت أدعو

لك بهذه بالضبط، وسبحان الله جاءك ما كنتُ أدعو لك به»، «أرزاق يا أخي، أرزاق»...

صديقي العزيز، أنا..

اليوم، رغم أنه أول يومِ عملٍ، لا يوم قبض الراتب، اشتريتُ لنفسي حلوى، ومثلجَات، وقميصا جديدا، وجوربين، وعلبة نيوتيللا! تخيل! اشتريتُها لأول مرة في حياتي، والأمر يا صديقي، كما تعلم، لا علاقة له بالفقر أو الغِنى، بالمال أو عدمه، يتعلق بهم بالتأكيد لكن هناك شيء أكبر، وهو أنني أنتقل من درجةٍ إلى درجة، وأجرب العسل بعد العلقم، فأجد حلاوته ضعفين، تارةً لأنه العسل، وتارةً لأن متذوقَهُ أنا، متجرع العلقم ثلاث مراتٍ يوميا.

أمي العزيزة،

أفتقدك جدا في هذا الوقت، لم أكن أفتقدك من قبل، كنتُ أقول الحمد لله أنك رحلتِ قبل رؤيتي نحيفا هزيلا، أجري على أجري، ويصفعني النهار ويوجعني الليل، ويؤلمني بطني كل مساء، ويجف حلقي، وأقول: اصبر يا ولد، علمتك أمك أن تكون رجلا.

الآن أريدك هنا، لترَي كيف تبدل حالُ رجلك الصغير، أعلم أن الأمر ليس بهذا الحجم، وأنني لم أعين وزيرا للشباب

والرياضة، ولا سفيرا في إيطاليا، ولا رئيسا للبنك المركزي، ولكنني موظف، وعلى قدر ما يشتكي الموظفون أرضى، وأقول الحمد لله، وأضرب الراتب في عدد الشهور، وأقول بعد عامٍ سأستطيع شراء كذا.

أمي القريبة جدا، البعيدة جدا،

وددتُ لو كنتِ أول من يسمع الخبر، فأقبل يديك ورأيك، وتقبلين خدي، وتضمينني ضمة الأم لوليدِها، لا لـ«الشحط» الكبير الذي يساوي طولها مرتين، لتذكرينني بمدى ضآلتي في أكثر لحظةٍ أشعر فيها بانتفاخي، وتذكرينني بالله، وتقولين: أخرج صدقةً يا قلبي.

أعدك بالاجتهاد، بقطع الطريق إلى المجد زحفا ومشيا وهرولة، الآن سيكون طعم السعي أجمل، لأنني رأيتُ أول عربونٍ له، دفعته لي الأقدار وقالت: خذ، ففرحتُ حتى كاد قلبي أن يقف، فقالت: احتفظ بقلبك الآن، سعيتَ كأن حياتك «شيك على بياض»، واليوم تُرزَق كأن كل الرزق ليس سوى «عربون» لرزقٍ بعده أكبر.



(٦)

ورقتي الجميلة،

اليوم قال لي المدير إنني موظفٌ جيد، وإنسان مجتهد، ورجل أستحق الثقة والتقدير، متى عملت؟ متى صار لي مديراً؟ متى أصبحت ضمن فئة «الموظفين»؟ لا أعلم، لكن الأمر على ما يبدو حقيقي.

هل العمل بهذه الدرجة من البساطة؟ أبدا، لكنني أشاركك سيدي الدفتر، سيدي القلم، سيدتي الورقة، آنساتي سادتي الكلمات والسطور، في كل ما يحدث، أشرككم معي لأنكم تجيدون الاستماع، لا تستوقفونني أثناء الحديث، وتسألونني أسئلة غبية، ترى كل ثرثرتي بلا قيمة، مثلما قطع أحدهم حديثي اليوم، وقال لي: «المهم...» ثم أكمل سؤاله، كأن كل ما قلتُه قبل كلمة «المهم»، لم يكن إلا هواء.

ثم إنكم تكفونني عن حديث الناس للناس، أسمعهم يتهامسون بأنني غريب، بأنني صامتٌ معظم الوقت، بأنني

لا أتكلم إلا أحيانًا، وأنا أعرف أنني حين أتكلم أكون مدعاةً للسخرية، لأن الجميع هنا لم يصلوا مثلما وصلت، لم يمروا من الطريق ذاته، يتفاخرون بأنسابهم، هذا من عائلة كذا، وذاك من نسل الوزير كذا في عهد الملكية، وتلك ابنة فلان الفلاني، رحمه الله، الذي لم أسمع الناس يترحمون عليه أبدا، البُسطاء يتداولون اسمه وخلفه سِربٌ من الشتائم الطائرة، ثم يقول أتقاهم: اذكروا محاسن موتاكم، فيقولون: والله لو وجدناها لذكرناها.

جميعهم يتفاخرون بشيءٍ من الماضي السحيق، بمجدٍ لم يصنعوه هم، وربما لم يصنعه آباؤهم كذلك، لكنه على كل حالٍ يدعوهم إلى نفخ صدورهم، والتجول بين المكاتب كالديوك، يصيحون، يضحكون، وصدورهم تتقدم أجسامهم بمسافةٍ واضحة.

أما أنا، آنساتي سادتي، حضرات الأقلام والأوراق والسطور والكلمات، فوصلتُ إلى هذا الطريق بدراجةٍ متهالكة، ثم سيرا على كعبين متشققين، ثم بالترامِ البطيء، ثم بالحافلة المكتظة عن آخرها بنصف سكان مصر، ثم بالمترو الذي يشبه خلاطا للبشرية، ثم جريا تحت الشرفات لأن الأمطار جعلت من الأرضِ بركة طينٍ كبيرة، تأبطتُّ الحذاء الذي استعرتُه من صديق، ثم مررتُ بحمامٍ عمومي اغتسلتُ فيه

من قذارات الطريق، وغسلتُ بنطالي المكوي، الذي كان مكويًّا، وانتظرتُه يومًا حتى يجف، ارتديتهُ ثم طرقتُ باب الشركة، بينما كان ينزل كلٌّ منهم أمام الشركة نفسها، من سيارة أبيه المرسيدس.

ولذا، فإنني على يقينٍ، بأنني أشعر بالراحة في كرسيَّ أكثر مليون مرةٍ مما يشعرون به في كراسيهم، رغم أن الكراسي كلها واحدة، لكن الإنسان الجالس على كلٍ منهم، استحق الجلوس هنا، بشكلٍ مختلف.



(٧)

أبي العزيز،

منذ زمنٍ طويل لم أكتب إليك، لم تعرف أخباري، لم أطلعك على التفاصيل كالعادة، اكتفيتُ بالخطوط العريضة التي أخبرك بها دائما، الأخبار؟ بخير الحمد لله، الدراسة؟ أتممتها بخير الحمد لله، العمل؟ يسير بخيرٍ الحمد لله، النفسية؟ عساها بخيرٍ الحمد لله.

لكنني اليوم أريد أن أحكي لك، أن أخبرك بما أمر به بشيء من الثرثرة، لتتذكر أمي رحمها الله، عساكما الآن معا، ولعلك ترجو من الله أن يكون هناك مركز شرطةٍ في الجنة، لتسلمها إليه، بتهمة تعكير صفو الأهالي وسكان الآخرة، ومنافسة نقّار الخشب في إزعاجه، كأنها منقارٌ كبير وقوي، يرى رؤوسكم الهينة اللينة جذوعَ أشجار.

هأنذا بدأتُ الثرثرةَ مبكرا،

أبي الطيب، ابنك كبر، صار ما شاء الله طولاً بعرضٍ بارتفاع، يرتدي حذاءً كالسفينة، ويلبس نظارةً تشبه نظاراتك القديمة، وله شاربٌ له القدر على كنسِ أحياء القاهرة كلها دون أن يتلف، وله عينان ثاقبتان، تنغلقان كعينيك أول ما يضحك.

لم أفهم ما السر في أننا نتحول بالتدريج إلى آبائنا، لم ألاحظ ذلك بالمرة، إلا حين نظرتُ في المرآة، في غرفتك، ووجدتُّ صورتك الصغيرة، التي كانت أمي تعلقها بالمرآة، تشبهني تماما، وجهي الكبير الذي له القدرة على الحركة يمينا ويسارا وما ا زال الدم ساريا في عروقه، ووجهك الثابت مكانه منذ عشرين سنة، ووجدتني نسخةً طبق الأصل منك.

مررتُ بالطريق نفسها يا أبي، أعرف أنك سعيتَ واجتهدتَ، أنك أنفقتَ عمرك كله لتدَّخر، ومتَّ دون أن يكون في خزانتك قرشا واحدا، وتركتَ لنا ديونا –رغما عنك– سددتُّ آخرها قبل عامين، وعرفتُ حينها أن التركة التي تركتها لي لم تكن الأموال التي آكل منها حتى أصاب بالتخمة، وإنما الفقر، والوفاء بالديون، وأن الله قد يكون قد ادخر لي من بعدك أجري وأجرك، فصار حالي كما ترى.

كبرتُ يا حاج، وعرفتُ أنه ليس شرطا أن نصل جميعا، يكفينا أن يسعى أحدنا، ويعلم السعيَ للذي يليه، ويموت

الأول في نصف الشهر، ويقبض الثاني الراتبين آخر الشهر، لأن كليهما سعى، ولأنهما كانا على العهد معا.

أبي الحبيب،

فكرةُ أنني أشبهك تملؤني فرحة، أقول لنفسي: أبوك لم يمت، غاب ربع قرنٍ ثم عاد على هيئتك، قرر أن يستريح قليلا من عناء الدهر، ثم يعود محمولًا على ريش النعام، لترى أمك الهنا الذي أصبح فيه، لكن خطرت لبالي فكرة أظنك سوف تؤيدني فيها، وهي أنك قررت الهروب من أمي إلى الآخرة حين كانت بجوارك، ثم حين ذهبت إليكَ، هربتُ منها إلى الدنيا من خلالي مجددا، مسكينة أمي والله.

المهم،

أكتب إليك هذه الرسالة لعلها تصل، لأخبرك فيها بأنني اشتقتُ إليك جدا، إلى ضحكتك، إلى عصبيتك، إلى وجهك الساخر، وعينيك الراضيتين، ولسانك الذي لا يرحم، وهيئتك التي كما هي، ثابتة في عقلي بمسمارين، وغرفةٍ، وخمسٍ وأربعين سنة.

شكر الله سعيك، قصرتَ عليّ المسافات، ووهبتني عمرك ضعفين، ورميتَ لي من السماء كيسًا ممتلئا بالرزق، وهمستَ

لي: لا تنسَ إطفاء المصابيح، لا تنسَ الغاز مفتوحا، اذهب إلى الحلاق الليلة، وأعطه أجرته مرتين، مرةً لحلاقة شعرك الكبير، ومرةً ليهذب لي شاربي الذي تحت أنفك.



(٨)

غرفتي العزيزة،

ما رأيك؟ أود أن آخذ رأيك الليلة، هل يعجبك حالنا؟ هل أنت موافقة على ما يحدث؟ ألم يحن الوقت الذي آنس فيه بأحدٍ ما، أم فات الوقت؟ في الحقيقة مهما بدوتُ لك صلبًا، ومهما خبأتُ عنك مشاعري، ومهما طويتُ مكنون نفسي في نفسي، وخُيّل إليك أنني مكتفٍ بما أنا عليه، فإنني أعود وأعترف بأن الوحدة على قدر ما أعطتني بصيرةً، فإنها سلبت مني عيونا كثيرة.

وأنا لا أريد أن أمضي عمري أتوكأ على الجدران، وأتحسس الحوائط، ولا أشعل القناديل، لأن ظلي يخيفني، وخيالي يفزعني، ووحدتي تتعرى لي حين نختلي، وتكشف لي كم أنا «بلا أحد»، وأرى كل الفاكهة الساقطة بالخريف، وأراها تُدهَس تحت الأقدام، فأتذكرني، حين يقول عني الناس: «مقطوع من شجرة».

هل تبدو عليّ الانطوائية إلى هذا الحد؟ هل تليق بي؟ هل كل ما مررتُ به كفيلٌ أن يخيف الناس مني، أن يخيفني من الناس، أن أشعر بالرهبة من كل شيء، كم فتاةً يا سيدي العقل رفضتها، وقلت لي: فعلتَ الصواب؟ كم حلوةً أُعجب بها قلبي فعنَّفتَه، وقلت: لا أريد أن أرى هذه الممنوعات في الجسم مجددا، المرة القادمة إن رأيتها سأترك لكم الجسد، وأذهب.

لم تعد الحياة ضيقةً إلى هذا الحد الذي لا أطيق فيه جلوس آخرٍ بجواري، ولا أن تكفي لاثنين يتمددان أمام التلفاز بغرفةٍ دافئة، ولا أن تتسع لروحين في فناءٍ واحد، ولا أن تزدحم بروحين في فضاء واحد، ولا أن أفعل بها شيئا غير الحديث إلى الجدران، ولا أن ينصت لي كائنٌ من خصائصه الكلام، لا أن أتخيل الجمادات تسمعني حين أشكو إليها، وأنا متجاهلٌ أنها مخلوقاتُ مصمَتة.

غرفتي العزيزة،

تعلمين وحدتي من البداية، تعرفين أسرارها، شهدتِّ على كل ما مر بي، وعلى كل مرٍّ مررتُ به خارجك وعدت حكيته لك، رأيتِني أضرب هذا الجدار يوم كسرتُ إصبعي، ورأيتني يوم هويت بقبضتي على ذلك الزجاج فجرحتُ رسغي،

ورأيتني يوم عاهدتُّ نفسي على الهدوء، وفي الصباح التالي كان الجيران يتحدثون عن صرخةٍ مغزعةٍ بالشقة التي يسكنها الشاب الوحيد.

رسالتي العزيزة،

أشكو إليكِ أنني أتمنى يومًا، أن أكتب رسالةً أبدؤها مباشرةً بـ«عزيزتي»، وأنا أعلم جيدا، وأحفظ عن ظهر غيب، عنوان المرسَل إليه، واسمه الثلاثي، والطوابع التي يحب أن تكون على الجواب.



(٩)

متى مرت كل هذه السنوات؟ وكيف؟ وبأي سرعة يا أنا؟

كيف صار التنقل بين حافلة الجامعة والبحث عن عمل والجوع بالليل، ذكريات؟ كيف تحولت المخاطر إلى خواطر؟ والذاكرة إلى مذكرات؟ والبكاء طول الليل وحدي، إلى بكاءٍ طول الليل وحدي، فهذه لم تتغير.

كيف تحول وجه أبي الذي وجدته في وجهي، إلى وجهٍ أكبر، عجوز، تكثر فيه التجاعيد، ويشبه تلك الصورة التي كان أبي يحتفظ بها في الدولاب، ويقول إنها لجدي الذي لم أره؟

كيف مرت هذه السنين بكل ما تحمله من أيامٍ لسعتني فيها حرارة شمسها، وبكل ما تحمله من ليالٍ قرصتني فيها برودة هوائها، كأن العمر كله لم يكن إلا يوما وليلة؟ ثم هأنذا، أجلس على كرسيي، في شرفةِ الغرفةِ، أراقب المارة، كأنني في صباح اليوم التالي، وكأن الحياة في أطول حالاتها، تكون مجرد يومين؟

أراقب المارة كأنهم ذكريات، كأنهم أشباحٌ في خيالي، أقول هذا كان الرجل الذي سخر مني حين طلبتُ منه العمل عنده، وذاك صديقٌ يعرج على قدمه ويستند إلى عكازٍ كان هدية مني، ردا للجميل، للكلمة التي قالها يوما حين كنتُ وحدي، وأبلغني أنه بجانبي، وأتخيل تلك الصغيرة، أمي، ما زالت صغيرةً، وصرتُ أنا أكبر منها عمرا، وتقلصتُ من ضعفي طولها، إلى أن صرتُ مثلها تماما، ليس لأنني قصرتُ وإنما لأن ظهري انحنى.

يا لطيف!

متى فعلت بي الأيام كل هذا؟ ومتى أفقتُ فوجدتني في كابوسٍ طويل؟ ومتى غفوتُ فوجدتني في واقعٍ مؤلم؟ ومتى وجدتني في غير هذا ولا ذاك، رجلا شيخا، يرى شريط حياته يمر أمامه بسرعة الساعات السعيدة، ويذكره بكل أوقات تعاسته، ولا يمر، يتوقف عندها، يتلكأ، يتعمد التمهل، أبكي، فيشفق عليّ، ويمر، ويجلب الذي بعده، ولا أراه، أستوقفه، فيجري أسرع، وأجد بعدها إشارةً تقول: تلك كانت لحظات سعادتك. فأقوم لأجري وراءها، لأجد قدمي ميتتين إكلينيكيا، متوقفتين عن الخدمة، وأريد أن ألحق بها بكرسيّ المتحرك، فلا أجد أحدا يدفعني.

متى كبر الصغير؟ وتضاءل الضخم؟ وهدأ الوحش؟ وعاد الرجل رضيعا يشكو لأمه حرارة الصيف وبرودة الشتاء وكسوف الشمس وخسوف القمر؟ ويسألها عن عشاء اليوم، وإفطار الغد، وكيف أتيتُ إلى الدنيا؟ وتضحك دون كلمة واحدة، فأقول: أهكذا؟ جئتُ إلى الدنيا بالضحك؟ فتقول: أجل. فأضحك، حتى تغرورق عيناي، ولا أجد أطفالا، أشكو لها، فتنصحني أن أستمر بالضحك، وتغرورق عيناي أكثر، وأشعر بسخونةٍ على خديّ، وماءٍ يسيل من عيني، فأضحك أكثر، وأفهم مع نفسي أن رزقي من الأولاد في الدنيا الدموع.



(١٠)

أمي التي أوحشتني كثيرا حين غابت،

السلام، كل السلام، عليك، اشتقتُ إليك، صعقتني الدنيا، وصنعتني، جعلتني يا أمي رجلا، طفلا يكبر، شابا تغره قوته، كهلا مفتونًا بمركزه الذي حققه، شيخا يراقب الأيام كأنها أطفاله، هرما ما زال رغم العمر يتذكرك كل ليلة، ويكتب إليك: أمي التي أوحشتني كثيرا حين غابت، السلام، كل السلام، عليك.

أشعر بشيء غريب يتردد في صدري، شيء يدق غير قلبي، كأن أحدًا ما يطرق ضلوعي لآذنَ له بالدخول، وطول عمري كنتُ أتجاهله، لم أكن أفتح له، يقول لي: لو سمحت، أقول له: لا أسمح، فينصرف، ويعود يطرق من جديد وأتجاهله، وأقول له إن أمي أوصتني يوم وفاتها، ألا أفتح لغريبٍ الباب أبدا.

اليوم جاء، وقال لي: «أمك تقول لك الليلة: افتح».

فبعثتُ إليك حبيبتي برسالتي لأسألك، هل هو مبعوثٌ من طرفك حقا؟ هل أنت مَن أرسلتِه أم يتحايل عليّ؟ إن كنتِ مَن أرسلته فلماذا لم تخبريني طوال هذا العمر، ولماذا لم يخبرني بوصيتك إليّ أن أفتح له غير الآن؟

المهم، اليوم طوال النهار كنتُ أرتب البيت، منذ سنواتٍ لم تسعفني قوتي لأفعلها، لكن اليوم سبحان الله، من الضحى وأن أشعر بنفسي في عز الشباب، نظفتُ الغرفة جيدا، كنستها، مسحتها، عطرتها، جمعتُ كل أغراضي في صندوقٍ إلى جانب صندوقين لكِ ولأبي، جمعتُ ملابسي في رفٍ واحدٍ بدلا من الدولاب المستقل، تحت رفَّي ملابسٍ لك ولأبي، ووضعتُ صورتي في بروازٍ ذهبي، وعلقتُه تحت البروازين الذهبيين لكما أنتِ وأبي.

الآن أكتب إليكِ رسالةً، كالتي كتبتِها أنتِ يوما لي، كما كتبها لكِ يومًا أبي، وأخبرك فيها بكل ما فعلته، وأنتظر منك الرد بالتأكيد، على أن أفتح للغريب، وأثق بالطارق، وأقول له: تفضل.

الآن وقد رأيتُ صورتك على الحائط تبتسم، وعين أبي في المرآة تنغلق بهدوء، فإنني أفعل الشيء الأخير الذي نستُه

كالعادة، وطالما أوصيتِني به كلما دخلتِ الغرفةَ ووجدتِّني نائما في الظلام، فتقولين: يا ابني افتح الشباك.




رسائل وُضعت
في الصندوق
بعد مرور الساعي..
وإغلاق مكتب البريد

(١)

إلى أبي الذي مات في الغربة مقهورا..

لم يكن الأمر يستحق أن تبتعد عنا ساعة.. أما بعد..

(عذرا.. الشخص الذي تحاول الإرسال إليه غير موجود).



(٢)

إلى صديقي الذي تأخرت في الاعتذار إليه..

أنا آسف، أما بعد..

(عذرا.. الشخص الذي تحاول الإرسال إليه غير موجود).



(٣)

إلى صديقتي التي رحلت قبل أن أخبرها بحبي..

أحبك.. أما بعد..

(عذرا.. الشخص الذي تحاول الإرسال إليه غير موجود).



(٤)

إلى صاحبي الذي انتحر لأنه لم يجد حضنا واحدا يدعوه إلي الحياة..

هأنذا أضم تراب قبرك.. أما بعد..

(عذرا.. الشخص الذي تحاول الإرسال إليه غير موجود).



(٥)

إلى أنا..

أما بعد..

(عذرا.. الشخص الذي تحاول الإرسال إليه غير موجود).





الفصل الأخير

(٠)

حين وجد ساعي البريد صندوق رسائلي فارغا، ترك لي به رسالةً يقول فيها:

«عمر الكلام الجاف.. مايبل ريق عطشان».



عزيزي المرسَل إليه هذا الكتاب،

عساك الآن تقرأ آخر صفحةٍ برسالتي، لكنها ليست النهاية،

وإنما تركتُ لك صفحةً أخيرةً، ستكون رسالتك الورقية الأولى

التي أرجو منك أن ترسلها قبل أن يفوتك ساعي البريد،

وستجد مع الكتاب ظرفًا يسعدني أن أهديه إليك

ليحمل رسالتك إلى أحدهم.

(أحدهم هو الذي خطر لبالك الآن).

بحمد الله،

تم إرسال الرسالة.

١٥ ديسمبر ٢٠١٩.

يوسف الدموكي.